

كيف كان صلح الحُدَيْبِيَّةَ فتحاً مبيناً

(دراسة تحليلية في آثار صلح الحديبية ونتائجه على المسلمين)

د. محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل

قسم التاريخ — كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، وخاتم المرسلين
نبينا محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فقد كان صلح الحديبية الذي وقعه النبي ﷺ مع مشركي مكة في السنة السادسة الهجرية نقطة تحول كبرى في مسيرة الدولة الإسلامية في المدينة . فلقد كان الرضى بالمفاوضة مع الرسول ﷺ من قبل قريش بحد ذاته تعبيراً عما وصل إليه المسلمون من قوة في نظر المشركين ، ثم كان الاتفاق على عقد الصلح لمدة عشر سنوات بشروط معينة اعترافاً قرشياً أمام الملأ بدولة المسلمين بصفتها كياناً سياسياً واعداءً فرض وجوده في الجزيرة العربية . وفي ظل هذا الصلح دخلت الدولة الإسلامية في طور جديد ، ذاك أن قريشاً انكفأت على نفسها عقب الحديبية ، ولم تتجاوز اهتماماتها الشؤون التجارية الخاصة بها ، بل لم تسع إلى ضم أحلاف جديدة لتدعيم قوتها ، بينما نشط المسلمون — بخلو الميدان من هذه القوة الرئيسة المجاهدة لهم — في توسيع أنشطتهم السياسية والثقافية وحتى العسكرية سواء في داخل نطاق جزيرة العرب أو خارجها .

والكتابات عن غزوة — أو إن شئت قل — صلح الحديبية كثيرة بكثرة ما كتب عن السيرة النبوية ، بل أكثر ، فالذين كتبوا في سيرة الرسول ﷺ في القديم والحديث كتبوا عنها باعتبارها إحدى غزواته المهمة ، فمنهم المستقل ومنهم المستكثر ، كما أفرد لها كتب وبحوث عدة . ويلاحظ أن نسبة عالية من تلك الكتابات لم تخرج عن الطريقة السردية لأحداث هذه الغزوة ، ثم ما أفضت إليه من صلح . وهناك جمهرة كبيرة من العلماء والمؤرخين التفتوا من قديم إلى نتائج هذا الصلح على المسلمين باعتباره فتحاً مبيناً كما في شرح المفسرين لسورة الفتح التي نزلت على النبي ﷺ في طريق قفوله من الحديبية إلى

المدينة ، وقد أبرزوا جميعاً أثره في انتشار الإسلام إبان الستين اللتين امتدت مدته فيهما . كما ساق بعضهم آثاراً ونتائج أخرى ، وذلك برصدهم ما نهض به الرسول ﷺ من أعمال عسكرية وسياسية ودعوية تفرغ لها بعدما استراح من تكاليف المواجهة المستمرة مع قريش ، منها القضاء على اليهود ، ومكاتبه معاصريه من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل لدعوتهم إلى الإسلام .

والواقع أن نتائج الصلح وآثاره على الإسلام والمسلمين عصرذاك كانت كثيرة ، منها ما هو نفسي ومعنوي ومادي ، وقد وقع شيء منها للمسلمين على أرض الحديبية نفسها ، ثم تذوقوا قسطاً آخر منها وهم في الطريق إلى المدينة راجعين ، ثم نالوا القسط الثالث منها بعد ذلك .

وفي دراستنا هذه محاولة لتحليل تلك النتائج المختلفة ، والآثار المتعددة ، وربطها بشروط الصلح وبالأقوال المفسرة لها في هذا الباب ، سواء ما روي عن الرسول ﷺ ، أو ما نقل عن أصحابه رضوان الله عليهم ، أو ما عبر به من جاء بعدهم من العلماء ومصنفي السيرة النبوية والمؤرخين . وقد قسمناها — بعد عرض سريع موجز لهذه الغزوة ، وإدراج حربي لنصوص الصلح ، ووقوف عند وصفه بالفتح — إلى قسمين ، الأول: انطلقنا فيه من رواية لحديث قيل إن النبي ﷺ قاله أثناء مسيره قافلاً من الحديبية حين رأى أن أصحابه قد خيم عليهم الحزن ، فشرحنا عباراته ، عبارة بعد عبارة ، وذلك من خلال ما وقع من أحداث خلال تلك الغزوة . أما القسم الثاني : فقد تتبعنا ما جناه المسلمون من هذا الصلح من مكاسب ، وما حصلوا عليه من ثمرات .

أما عن أهمية دراسة هذا الموضوع فتكمن في أمور لعل أهمها ما يلي :

● أن في عرضه — حسب ما أبنا آنفاً — بيان موسع لمعنى الفتح المبين الموصوف به صلح الحديبية في القرآن الكريم .

● أن في هذه الدراسة تصحيحاً لمقولة قالها الزهري ووافقه عليها ونقلها عنه كتاب السيرة من بعده ، وهي أن انتشار الإسلام خلال صلح الحديبية يعود إلى الأمن الذي عاشه المسلمون وقريش ، وما ترتب عليه من لقاءات ومحاورات . والواقع أن انتشار الإسلام خلال سنتي الصلح مع قريش كان حقيقة لا تنكر ، تشهد له الوقائع ، وتتواتر حوله الأخبار ، بيد أن كثرة الداخلين في الإسلام إبان الصلح لا تعود فقط إلى حالة الأمن التي وجدت بين قريش والمسلمين ، وما نتج عنها من لقاءات ومحاورات ، لأن هذا لا ينطبق بطبيعة الحال إلا على جماعات من مسلمي قريش وأحلافها ، وهم جزء من الداخلين في الإسلام حينئذ ، وليسوا جميعهم . أما بقية الداخلين في الإسلام في تلك المدة سواء من عرب الجزيرة أو من خارجها — وفيهم فنام من قريش نفسها — فإن توجههم للدخول في الإسلام لم يكن بأثر من حلول الأمن بين قريش والمسلمين لا من قريب ولا من بعيد ، وإنما كان ثمرة أساليب ووسائل استخدمها النبي ﷺ في نشر الإسلام آنذاك ، كإرسال الدعاة ، وكتابة الرسائل ، بل حتى بيعت البعوث العسكرية المتمثلة بالسرايا . ثم لا ننسى أن تلك الأساليب والوسائل صاحبها عوامل أخرى كان لها أثرها في إقبال أولئك على الإسلام من أهمها استغلاظ قوة المسلمين ، وتنامي هيبة دولتهم .

● أن في هذه الدراسة لفت نظر كثيرين إلى أن سنتي الصلح لم تنقطع فيهما عمليات المسلمين العسكرية ، إذ شهدت هاتان السنتان نشاطاً عسكرياً مكثفاً من قبل المسلمين ، فقاتلوا يهود خيبر وما جاورها من معقل ، وحققوا انتصاراً

ساحقاً عليهم ، فكانت خير أول مدينة ذات مساكن وحدود يفتحها المسلمون ويضمونها إلى سلطاتهم . كما وجه النبي ﷺ سرايا عسكرية في كل اتجاه ، إلى درجة أن نسبة خروجها من المدينة زادت في زمن الصلح مع قريش أكثر من نسبة خروجها في السنوات السابقة عليه أو اللاحقة به .

وللإمام بإطراف هذا الموضوع ، ومحاولة الوصول إلى كل ما يفيد في دراسته كان من الطبيعي أن نعود إلى ما يمكننا من مصادر قديمة ومراجع حديثة حيث استفدنا من كتب التفسير ، وكتب الحديث وشروحه ، وكتب المغازي والسيرة وشروحهما ، وكتب دلائل النبوة ، وكتب التاريخ . كما استفدنا أيضاً مما جاء عن الموضوع في الدراسات والأبحاث الحديثة التي وقعت تحت أيدينا .

وفي الأخير أسأل الله العظيم أن يباعدني من الزلل ، ويوفقني إلى الإخلاص في القول والعمل ، ولا يحرمني من المثوبة والأجر ، إنه خير مسؤول .

في أواخر السنة السادسة الهجرية أمر النبي ﷺ الناس بالاستعداد للخروج إلى مكة للعمرة^(١) ، ثم خرج معه المهاجرون والأنصار ومن استجاب من الأعراب حول المدينة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ٦ هـ^(٢) ، فكان عددهم ألفاً وأربعمائة — على أرجح الأقوال^(٣) — ، فأحرم بالعمرة من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي تعظيماً للبيت وتكريماً ، لا يريد عدواناً على قريش ولا حرباً

(١) روى الواقدي أن السبب الذي حرك النبي ﷺ للتوجه إلى مكة هو ما رأى في المنام بأنه دخل البيت وحلق رأسه ، وأخذ مفتاح البيت (المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، ط. عالم الكتب ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٥٧٢) وقد تابع طائفة من كتاب السيرة النبوية الواقدي في ذلك عند حديثهم عن هذه الغزوة ، لكن يلاحظ أن ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما أغفلوا ذكر تلك الرؤيا عند الحديث عن سبب الغزوة . وبالتبع نجد أن لهذه الرؤيا أصلاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ ، وقد روي بسند حسن إلى مجاهد أن هذه الرؤيا التي أريها النبي ﷺ كانت عند نزوله في الحديبية ، وليست في المدينة (حافظ الحكمي : مرويات غزوة الحديبية ، ط. الأولى ، دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٣ - ٢٤) بينما جاء في رواية أخرى ما يشير بشكل غير مباشر إلى حدوث هذه الرؤيا ، فقد روى ابن إسحاق بسند حسن في قصة الصلح قوله « وكان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ ٠٠٠ » (ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق همام سعيد ومحمد أبو صعليك ، ط. الأولى ، دار المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ج ٣ ، ص ٤٤١ ، ٤٢٧) ولقد صح أن عمر بن الخطاب ؓ حين راجع النبي ﷺ في بعض شروط الحديبية قال مخاطباً النبي ﷺ « أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ » قال : بلى « (البخاري : الصحيح ، تحقيق مصطفى البغا ، ط. الخامسة ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٢ ، ص ٩٧٨) لكن قول عمر ؓ لا يدل بالقطع على الرؤيا المنامية .

(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ط. دار صادر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٣) حافظ حكمي : مرويات غزوة الحديبية ، ص ٥٣ .

مجلة جامعة الإمام (العدد ٤٢) ربيع الآخر ١٤٢٤هـ

فلما وصل عُسْفَان (على بعد ٨٠ كيلاً من مكة ^(١)) بلغه أن خيلاً لقريش بقيادة خالد بن الوليد قد هُدت إلى كُرَاعِ الْعَمِيم (على بعد ٦٥ كيلاً من مكة ^(٢)) لتصدّه عن مكة ، فغير ﷺ طريقه تجنباً للقتال ، وسلك طريقاً وعرّاً أفضى به إلى الْحُدَيْبِيَّة ^(٣) ، فبركت ناقته القصواء ، فلما اطمأن ﷺ في هذا المكان قَدِم عليه زعيم خزاعة بُدَيْل بن ورقاء ، وحاول التوسط بينه وبين قريش ولكن قريشاً لم تستجب له .

على أن قريشاً رأت بعد ذلك أن تتفاوض مع الرسول ﷺ ، فأرسلت مَكْرَزَ ابْنِ حَفْص ، ثم الحليس بن علقمة الكناني ثم عروة بن مسعود الثقفي . وقد رأى النبي ﷺ من طرفه أن يقنع قريشاً بأن تتركه يعتمر البيت هو وأصحابه ، ويعود لشأنه ، فبعث تحقيقاً لهذا الهدف خِرَاش بن أمية الخزاعي ، ثم عثمان بن عفان ؓ الذي احتجزته قريش فأشيع أنها قتلتها ، ولذا بايع ﷺ أصحابه على مناجزتها ، فتمت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، لكن عثمان ؓ ما لبث أن عاد بعد البيعة مباشرة . وحين علمت قريش بالذي تباع عليه الرسول ﷺ وصحابته بعثت سهيل بن عمرو ^(٤) ، فاتفق مع النبي ﷺ على عقد صلح بين الطرفين كتبه

(١) محمد محمد شراب : العالم الأثيرة في السنة والسير ، ط. دار القلم ، دمشق ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣١ .

(٣) وتنطق — أيضاً — بالتخفيف هكذا « الْحُدَيْبِيَّة » (ياقوت : معجم البلدان ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ج ٢ ، ص ٢٢٩) تقع إلى الشمال الغربي من المسجد الحرام على بعد ٢٢ كم ، وتعرف الآن بـ " الشمسي " ، وفيها حدائق الحديبية ، ومسجد الرضوان ، وأطرافها تدخل في حدود الحرم . (أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، ط. الخامسة ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٢ ، ص ١٢٧)

(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٢٧ - ٤٣٩ .

علي بن أبي طالب ﷺ ، هذا نصه — كما جاء بسند حسن — " . . . هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهَيْلَ بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشرَ سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض .

على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .

وأن بيننا عِيَّة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلal^(١) .

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . .

وأنتك ترجع عنا عامنا هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك ، فأقمتَ بها ثلاثاً معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها " ^(٢) .

وفي طريق عودة النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من الحديبية إلى المدينة نزلت سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ^(٣) ، وقد ورد أنها نزلت

(١) عيبة مكفوفة : أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع ، مطوي على الوفاء بالصلح (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط . أنصار السنة المحمدية ، لاهور ، باكستان ، ج ٣ ، ص ٣٢٧) والإسلال بمعنى السرقة أو سل السيوف . والإغلal بمعنى الخيانة أو لبس الدروع ، وقيل إن معناهما الغارة الظاهرة (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٢) .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٢٧ . أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إعداد علي حسن الطويل ، ط . الأولى ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ .

(٣) مسلم : الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط . الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، ج ٣ ، ص ١٤١٣ .

من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة في شأن الحديبية ^(١)، ولقد أكد الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه بأن المقصود بقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ هو الحديبية ^(٢). وقد جاء أن الناس أسرعوا إلى الرسول ﷺ وهو واقف على راحلته في كُراع الغميم (على بعد ٦٥ كيلاً من مكة) فقرأ عليهم: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟ قال: "نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح" ^(٣).

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه يرى في الصلح بمجرد أن وقعه النبي ﷺ مع قريش — يرى فيه الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين، وقد تمثل ذلك — كما ثبت في الصحيح — في رده على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاء مراجعاً له في شأن الصلح بقوله: "إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره ... " ^(٤).

كما أن بعض عقلاء المشركين من قريش قد استيقنوا من جانبهم أن الصلح كان في مصلحة المسلمين، يقول حويطب بن عبد العزى — أحد الذين شهدوا

(١) النيسابوري: أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان، ط. الأولى، مؤسسة الريان، لبنان، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ٣٨٢؛ حافظ حكيم: مرويّات غزوة الحديبية، ص ٢٦٥.

(٢) البخاري: الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، ط. الخامسة، دار اليمامة، بيروت، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م، ج ٤، ص ١٥٣٠، ١٨٣٠.

(٣) الحكمي: مرويّات غزوة الحديبية، ص ٢٦٦؛ العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ص ٤٤٩.

(٤) البخاري: الصحيح، ج ٢، ص ٩٧٨.

على الصلح :- " انصرفت من صلح الحديبية وأنا مستيقن أن محمداً سيظهر على الخلق " (١).

وبمرور الأيام تبين للمسلمين النتائج الباهرة لهذا الصلح ، وقد وصفه جمع من الصحابة رضي الله عنهم بأنه فتح ، بينما هو الفتح دون سواه عند بعضهم ، فيروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: " إنكم تعدون الفتح ، فتح مكة ، ونحن نعد الفتح : صلح الحديبية " (٢). بينما رأى البراء بن عازب رضي الله عنه أن فتح مكة يعد فتحاً ، لكن المتفق عليه عند فريق من الصحابة أنه إذا أطلق لفظ الفتح فإنما يعنى الحديبية ، فقال: " تعدون أنتم الفتح ، فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح ، بيعة الرضوان ، يوم الحديبية " (٣). أما جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقد حصر الفتح عموماً بصلح الحديبية في قوله: " ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية " (٤).

ومن ناحية أخرى فقد كشف بعض الصحابة رضي الله عنهم عن شيء مما أدركوه في زمنهم من نتائج هذا الفتح ، فعبر أبو بكر رضي الله عنه عن ذلك بقوله — فيما يروى عنه: " ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد صلوات الله عليه وربه ، والعباد يعجلون ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد ، لقد رأيت سهيل بن عمرو بعد

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٠١ ؛ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. دار الخيل ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ج ٥ ، ص ٦٠٩ .

(٣) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٢٥ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٦٠٩ .

إسلامه في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنه ، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق لحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره ﷺ ، يضعه على عينيه ، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم . . . وأن محمداً رسول الله ﷺ ، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام " (١).

والمتتبع لحوادث السيرة النبوية سواء في أثناء غزوة الحديبية نفسها ، أو فيما استقبله المسلمون من أيام وأحداث يدرك سر تسمية هذا الصلح بالفتح ، فقد كان بالفعل فتحاً عظيماً ، حيث بدأت بوادره بمجرد أن رضيت قريش في مفاوضة الرسول ﷺ ، ثم أخذ المسلمون يتذوقون ثمراته منذ أن ثنوا أعنة رواحلهم عائدتين إلى المدينة ، ثم بما عايشوه بعد من غزوات وفتوحات ، وكذلك بما قرع عيونهم من علو شأن الإسلام ، واتساع لرقعته ، وانتشار له بين الناس . وفيما يلي نورد ما تيسر من نتائج وآثار مباشرة وغير مباشرة لصلح الحديبية — دارسين لها ومحللين — باعتبارها تفسيراً مفصلاً لوصفه بالفتح ، وسيكون الكلام عن هذه النتائج والآثار مؤسساً ومنطلقاً — بقدر الإمكان — على ما ورد من أقوال مأثورة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، ثم كتاب السيرة من القدامى والمتأخرين . ويمكن أن نقسم هذه النتائج والآثار إلى قسمين القسم الأول: ما حصل منها للمسلمين وعایشوه أثناء هذه الغزوة ، والقسم الثاني: ما حصل بعد ذلك .

(١) الحلبي : السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٧٢١ ؛ الزرقاني : شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، تحقيق ، محمد عبد العزيز الخالدي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

أ - القسم الأول : روى موسى بن عقبة وغيره عن عروة أنه قيل عند منصرف المسلمين من الحديبية: " ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت ، وصد هدينا " ، فقال رسول الله ﷺ : " بئس الكلام ! بل هو أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم بالأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله — عز وجل — عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين . فهذا أعظم الفتوح ، أنسيتم يوم أحد ، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم في أخراكم أنسيتم يوم الأحزاب ، إذ ﴿ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ . فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله — عز وجل — وبالأمر منا . . . " (١) .

ففي هذا الأثر — وهو مرسل يرتفع إلى درجة الحسن لغيره لتعدد طرقه ، واختلاف مخارجه (٢) — بيان لجملة من المكاسب التي حصل عليها المسلمون في هذه الغزوة .

(١) البيهقي : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، تحقيق عبد المعطي قلعي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ٤ ، ص ١٦٠ - ١٦١ . وانظر الذهبي : تاريخ الإسلام (المغازي) ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٣٩٧ ؛ الزرقاني : شرح المواهب ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الحكمي : مرويات غزوة الحديبية ، ص ٢٧٩ .

الأول : قوله " لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم " فالـمقصود بـ (الرّاح) هنا الأكف^(١) ، فالمشركون استعدوا للمدافعة عن بلادهم بالقوة ، وهذا يعني أن المسلمين ظهروا أمام قريش وغيرها من العرب بمظهر القوة ، حيث تجهزوا في المدينة ، وتحركوا منها نحو مكة قاصدين دخولها الأمر الذي جعل قريشاً تفزع منهم ، وتحشد الجموع لقتالهم^(٢) ، بل ويتعاهد رجالها فيما بينهم أن لا يدخل الرسول ﷺ وأصحابه مكة " عليهم عنة أبداً " ^(٣) ، وقد استمر هذا الشعور يستحوذ على نفوس المشركين حتى بعد رضاهم بالصلح مع المسلمين ، إذ نرى سهيل بن عمرو حين طلب النبي ﷺ أن يخلوا بينه وبين الطواف بالبيت — يرفض طلبه ، ثم يعبر عن ذلك الشعور بقوله: " والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُعْطَةً " ^(٤)، أي: بالقوة والقهر^(٥).

الثاني : قوله " ويسألونكم القضية "، أي: المودعة أو الصلح^(٦) ، فالمشركون من أنفسهم أقدموا على مصالحة المسلمين ، إذ بعثوا سهيل بن عمرو " وقالوا له : اتت محمداً فصالحه . . . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول

(١) الزبيدي : تاج العروس ، تحقيق علي شيري ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٤ ، ٦٢ .

(٢) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٥ ، ج ٤ ، ص ١٥٣٢ .

(٣) أحمد : المسند ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ ؛ ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٢٨ .

(٤) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٥) ابن الأثير : النهاية ، ج ٣ ، ص ٩٠ ؛ ابن حجر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ .

(٦) الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق عادل أحمد عبد المقصود وعلي محمد معوض ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

الله ﷺ تكلم ، فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح " (١) . فسؤال قريش الصلح من النبي ﷺ وهو على حدود مكة ، وإبداؤها رغبة في السلام معه يعد اعترافاً بالمسلمين ، وتراجعاً أمام قوتهم ، بل إنه بتوقيعها هذه المعاهدة معهم وقبله بتولي النبي ﷺ ابتداءً صياغة نصوصها وإملاءها — وإن اعترض سهيل بن عمرو على بعض الألفاظ والبنود (٢) — ، وكذلك كون كاتب هذا الصلح من المسلمين وهو علي بن أبي طالب ؓ (٣) — إن ذلك يعني كله إقراراً رسمياً لأول مرة من قبل قريش بكيان المسلمين السياسي ، بعد أن كانت في السابق تشوه سمعتهم عند الناس ، فتدعي أنهم قطعوا الأرحام (٤) ، وانتهكوا الشهر الحرام ، حتى زعمت أنهم تجرؤوا فيه على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وأسر الرجال (٥) . فهي الآن قد عاملتهم معاملة الند للند ، وهذا معناه أن لا جناح على القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة من تكوين علاقات ودية مع المسلمين بعد التحلل من الانتماء للزعامة الأدبية التقليدية لقريش (٦) التي تعود العرب من قرون متطاولة على الإقرار بها ، والانضواء تحت مظلتها ، وربما التحرج من خرقها ، وقد بدأ هذا التوجه يأخذ مساره لدى القبائل العربية منذ لحظة كتابة شرط المعاهدة القائل " أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه "

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٢) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٦٠ ؛ مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤٠٩ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ٣٢٣ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ؛ النيسابوري : أسباب النزول ، ص ٦٩ ؛ وانظر

العمرى : السيرة النبوية الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٦) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة ،

١٩٨٥ م ، ص ٢١٤ ، ٥٥١ .

حيث سارعت خزاعة في الدخول في عهد النبي ﷺ ، وبتعبير الرواة — بشكل أدق — " فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده " ^(١) .

الثالث : قوله " ويرغبون إليكم بالأمان " ، يفهم منها بشكل صريح أن المشركين هم الذين عرضوا على الرسول ﷺ السلام ، وذلك بوقف القتال بين الجانبين ، فتم الاتفاق معهم على عشر سنوات كما جاء في شروط الصلح بالنص " على وضع الحرب عن الناس عشرَ سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض " .

ومن غير المستبعد أن توقيت وقف الحرب بعشر سنين كان من اقتراح مفوض قريش في الصلح سهيل بن عمرو ، فجاءت الموافقة من الرسول ﷺ عقب ذلك ، لأنه كان قد قال ﷺ لما بركت راحلته في الحديبية : " والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة [أي حالة أوقضية] يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها " ^(٢) . إذن فالتماس قريش الأمان مع الرسول ﷺ أولاً ، ثم تحديد هذا الأمان بعشر سنوات باقتراح منها — كما رجحنا — ثانياً فيه دلالة على أن قريشاً باتت تشعر بتراجع قوتها العسكرية ، وتردي حالتها الاقتصادية ^(٣) أمام المسلمين ، وأنها غير قادرة على مجاراتهم في أنشطتهم المتتابعة وتحركاتهم المتنوعة .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

(٢) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٤ .

(٣) مما يدل على معاناة قريش في الميدان الاقتصادي أنه لما تم الصلح مع المسلمين خرج أبو سفيان إلى الشام في تجارة حملته القرشيون الأموال حتى قال على حد تعبيره « فوالله ما علمتُ بمكة امرأة ولا رجلاً إلا وقد حملني بضاعة » (ابن كثير : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، ج ٣ ، ص ٤٩٥)

الرابع : قوله " وقد رأوا منكم ما كرهوا " فإن الناظر في أحداث هذه الغزوة لا يصعب عليه إدراك ما كرهه المشركون ، ولعل أولها قدوم المسلمين إلى مكة للعمرة ، يسوقون الهدى المقلد والمشر ، مهللين مكبرين ، معظمين البيت الحرام ، فتخرجت قريش من ردهم وهم على تلك الحالة ، لاسيما أن النبي ﷺ صرح لأحد مبعوثيها بقوله: " إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين " ^(١) ، بل إن مبعوثاً آخر لقريش لما حل بمعسكر المسلمين ورأى حالهم قال: " سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت " ^(٢) . ولا جرم أن مما كرهه المشركون في هذه الغزوة هو ما شهدوه أو سمعوه من تدافع لافلت للمسلمين حينما دعاهم نبيهم ﷺ إلى البيعة تحت الشجرة التي عرفت ببيعة الرضوان ، وذلك بمناسبة احتجاز المشركين عثمان بن عفان ﷺ في مكة ثم إشاعة قتله ، حيث قرر ﷺ أن لا يبرح مكانه حتى يناجز القوم ^(٣) ، فبايعه أصحابه على عدم الفرار في رواية ^(٤) ، وعلى الصبر في رواية ثانية ، وعلى الموت في رواية ثالثة ^(٥) ، وعلى الفتح أو الشهادة في رواية رابعة ^(٦) — فبايعوه على

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٤) مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤٨٣ ، ١٤٨٥ .

(٥) البخاري : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٠٨١ . انظر للجمع بين هذه الروايات محمد الأمين الحكني:

السيرة النبوية من فتح الباري ، ط. الأولى ، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ،

ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٦) ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحبي

الدين مستو ، ط. الأولى ، مكتبة دار التراث ، المدينة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، ج ٢ ، ص

١٧٤ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ٧ ، ص ١٩٢ .

أي صيغة من هذه الصيغ التي محصلتها في النهاية استعدادهم التام لمناجزة قريش ومثل هذه البيعة — بطبيعة الحال — لا تسعد المشركين ، بل تحزنهم وتقض مضاجعهم . ومن المؤكد — أيضاً — أن تحلق المسلمين والتفافهم حول قائدهم محمد ﷺ وتوقيرهم له ، كان من الأشياء التي كرهها المشركون ، إذ نقل إليهم مبعوثهم إلى الرسول ﷺ عروة بن مسعود الثقفي ما عاينه بنفسه من ذلك في المعسكر الإسلامي ، فقال حين رجع إليهم: " أَيُّ قَوْمٍ ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيتُ ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد . . . محمداً ، والله إن تنخم نُخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له " (١) .

الخامس : قوله " وقد أظفركم الله — عز وجل — عليهم " ، لقد ورد في القرآن ظفر المسلمين في الحديبية على المشركين في حادثة مخصوصة كما قرر المفسرون عند تفسيرهم قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) ، فصح أن جماعة مسلحة من المشركين تسللت إلى الحديبية تنتظر غرة من المسلمين للانقضاض عليهم ، فتمكن المسلمون من القبض على هذه الجماعة ، ولكن

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ .

(٢) سورة الفتح ، آية ٢٤ .

الرسول ﷺ امتن عليها بإطلاق سراحها^(١) . أما إذا أخذنا ظفر المسلمين بالمشركين في الحديبية بصورة شاملة فإن ذلك واضح إذا تُنبه إلى المكاسب المتقدمة ، المتمثلة في كون المشركين لم يدفعوا المسلمين عن بلدهم إلا بالقوة ، ثم سألوا الرسول ﷺ الصلح ، ورغبوا إليه بالأمان ، وشاهدوا وسمعوا في معسكر المسلمين ما ساءهم وأفزعهم . إضافة إلى ذلك كله فإن الناظر إلى شروط الصلح يجدها وإن كانت تخدم مصالح المشركين فإن معظمها في الوقت عينه تصب في مصلحة المسلمين أيضاً ، فلقد كان في مصلحة الطرفين وضع الحرب عشر سنين ، وأن يسود الأمن ، وأن يتعد الجميع في العلاقات بينهم عن الغل والخداع والخيانة والسرقة وسل السيوف ، وأن يبقى الخيار مفتوحاً أمام القبائل العربية للدخول في حلف أو عهد من شاءت من القوتين كلتيهما على حد سواء . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن ما عده بعض المسلمين تراجعاً عن حقوقهم الشرعية كالرضى بتأجيل عمرتهم إلى العام القابل ، أو اعتبروه نوعاً من التنازل عن عزهم ودينهم كالموافقة على رد المسلم إلى المشركين ، وعدم رد المسلم المرتد عن الإسلام إلى المسلمين^(٢) ، إن هذين الشرطين صاراً فيما بعد في صالحهم كما سيأتي شرحه بعد .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ج ١٦ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٦٢٣ - ٦٢٥ .

(٢) لقد اعترض سهيل بن عمرو مفاوض قريش على أن يكتب في وثيقة الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ، وأصر أن يكتب باسمك اللهم ، ومحمد بن عبد الله ، وقد اشتد ذلك على المسلمين ، حتى أن علي بن أبي طالب عليه السلام تلى في محو عبارة رسول الله ، فمحاها النبي ﷺ بنفسه (البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٦٠ ، ٩٧٧ ، مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤٠٩ ، ١٤١١) قال بعض العلماء : إن ما فعله علي عليه السلام من باب الأدب المستحب ، لأنه لم يفهم من النبي

السادس : قوله " وردكم سالمين غافلين مأجورين " فالمسلمون الذين بلغ عددهم أربعمائة وألفاً — على أرجح الأقوال — عادوا إلى المدينة دون أن يُفقد أحد منهم ، بل حتى لم يتعرضوا لأي إصابة مع أنهم قطعوا مسافة طويلة ، وقصدوا عدواً لدوداً ، ونزلوا على أطراف مكة التي كانت آنذاك قاعدة الشرك في الجزيرة العربية ، وقد كان الأعراب يراهنون على عدم عودتهم إلى بلدهم ، ويظنون أنهم سيقتلون ويستأصلون ، قال تعالى مخبراً عن ظنهم الخائب هذا: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ^(١). وفوق

= ﷺ تحتهم محو علي بن نفسه ، ولهذا لم ينكر عليه (القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، تحقيق صالح أحمد الشامي ، ط. الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ج ١ ، ص ٥٠١ ؛ الشامي : سبل الهدى ، ج ٥ ، ص ٧٧) أما موافقته ﷺ المشركين على كتابة باسمك اللهم ، ومحمد بن عبد الله ، وترك بسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد رسول الله فإنه كان « للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح ، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور ٠٠٠ » (القسطلاني : المواهب اللدنية ، ج ١ ، ص ٥٠١) فمثل هذه الأمور « لا تتعلق بالعقيدة ولا بالمبدأ ٠٠٠ وليس فيها اعتراف بالباطل ولا إقرار له ٠٠٠ » (ناصر العمر : حقيقة الانتصار ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٢ هـ ، ص ٩٤) . وكان المسلمون قد تألموا من موافقة الرسول ﷺ على بعض ما جاء في الصلح كما أشرنا في المتن ، وقد حكى سهيل بن حنيف ؓ ما وجده في نفسه حينذاك فقال « ٠٠٠ ولو أني أستطيع أن أورد أمر رسول الله ﷺ لرددته » ، وقد كان من أشد الصحابة في ذلك اليوم عمر بن الخطاب ؓ ، حيث راجع الرسول ﷺ حتى قال له في آخر كلامه « فعلام نعطي الدين في ديننا ٩٠٠ » ، كما أنه أيضاً راجع أبا بكر ؓ وقال له ما قال للرسول ﷺ (مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤١٢) ولقد علل بعض العلماء مراجعة عمر ؓ للنبي ﷺ في شأن الصلح بأنه لم يكن شكاً منه ، بل طلباً في كشف ما خفي ، وحثاً على إذلال الكفار ، لما عرف من قوته في نصرة الدين (الشامي : سبل الهدى ، ج ٥ ، ص ٧٨ ، الحكني : السيرة النبوية من فتح الباري ، ج ٢ ، ص ٢٢١) وانظر العمري : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(١) سورة الفتح ، آية ١٢ ..

عودة المسلمين بسلام إلى المدينة فإنهم قد عادوا من هذه الغزوة بفضل عظيم ، وأجر كبير ، فلقد صح أن النبي ﷺ خاطب أصحابه وهو في الحديبية بقوله: " أنتم خير أهل الأرض " ^(١)، وقال مرة أخرى لهم: " . . . لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم " ^(٢). ثم بشرهم بمغفرة الله لذنوبهم بقوله: " كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر " ^(٣)، ولما بايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة أخبرهم بأن الله سيثيبهم بالنجاة من النار ، فقال ﷺ كما ثبت عنه " لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها " ^(٤). كما بشرهم بدخولهم الجنة بقوله: " ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر " ^(٥). ثم إن الله سبحانه أنزل سورة الفتح في طريق العودة إلى المدينة حسبما ذكرنا من قبل ، وقد قال النبي ﷺ ساعته: " لقد أنزلت عليّ الليلة سورة ، هي أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس . . " ^(٦) إذ ورد فيها من البشارة والخير والفضل ما أسعد الرسول ﷺ وأصحابه ، فلقد نعت الله هذا الصلح بالفتح المبين ، وأنعم على نبيه الكريم بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ووعدته بالنصر العزيز ، كما تكفل للمؤمنين بدخول الجنان ، وبشر المبايعين للنبي ﷺ تحت الشجرة برضاه سبحانه وتعالى

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٢٦ .

(٢) أحمد : المسند ، ج ٣ ، ص ٣٣ . وقال ابن حجر عن إسناده هذا الحديث إنه حسن (فتح الباري ج ٧ ، ص ٤٤٣) .

(٣) مسلم : الصحيح ، ج ٤ ، ص ٢١٤٤ — ٢١٤٥ . وصاحب الجمل الأحمر قيل هو الجد بن قيس المنافق (عياض : إكمال المعلم بفوائد مسلم ، تحقيق يحيى إسماعيل ، ط. الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ج ٨ ، ص ٣١٢) .

(٤) مسلم : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٩٤٢ .

(٥) المباركفوري : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ .

(٦) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٣١ .

عنهم ، ووعدهم بفتح قريب ومغانم كثيرة ، كذلك أكد رؤيا النبي ﷺ بما سيقع
لا محالة من دخولهم المسجد الحرام معتمرين .

هذه هي المكاسب الآنية التي روي أن الرسول ﷺ عددها لأصحابه وهم عائدون
من الحديبية — وقد حاولنا تفسيرها وتوسيع مدلولاتها آنفاً — ، وبعد تعدادها ختم
ذلك بقوله: " فهذا أعظم الفتوح " ، ثم ذكرهم بما مر عليهم في غزوتي أحد
والأحزاب من شدة ومحنة وخوف ليدركوا نعم الله عليهم في هذه الغزوة ، وعندها
تنبه المسلمون إلى ما كانوا غفلوا عنه ، وأقروا بأنهم لم يكونوا قد فكروا بما فكر
به رسولهم ﷺ .

ب - القسم الثاني : نتائج صلح الحديبية مع قريش وثمراته بعد الغزوة ، وقد بدأ المسلمون يحسون بها ويعايشونها في مناحٍ متعددة من حياتهم ، وكذلك في علاقة دولتهم بالقوى المعاصرة سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها ، وهي كالتالي :

أولاً : في الشرط الذي عبرت فيه قريش عن كبريائها وخيلائها وهو الخاص ببرد المسلمين عن البيت دون أن يؤدوا عمرتهم بعد ما أعلنوا ذلك ، وأتوا إلى مكة من أجله فإنها قد وافقت في الشرط نفسه على السماح لهم بالعمرة في السنة القابلة دون إبداء أي تحفظ على ممارساتهم التعبدية فيها ، وبهذا كسب المسلمون الحق الشرعي في زيارة البيت الحرام بالشعائر والأحكام التي تفرضها عليهم عقيدتهم الإسلامية ، وذلك من غير مدافعة لقريش ولا حرب معها .

ثم إن هذه الزيارة للبيت وإن تأخرت عاماً فهي في حقيقتها فرض لإرادة المسلمين على المشركين أصحاب السلطان في مكة ، وتحقيق لموعود الله تعالى ووعد نبيه ﷺ للمسلمين في دخول المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ، وكان النبي ﷺ قد لفت أنظار الصحابة إلى ذلك في معرض رده على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما راجعه في بعض شروط الصلح ، حيث قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ : " أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ " فرد عليه الرسول ﷺ بالقول : " بلى ، فأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ " ، فقال عمر رضي الله عنه : " لا " . فقال الرسول ﷺ " فإنك آتية ، ومطوّف به " ^(١) .

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٧٨ .

ثانياً : كان لدخول المسلمين من العام التالي مكة بناءً على الشروط الموقع عليها في الحديبية ، وأدائهم مناسك العمرة التي سميت عمرة القضاء أو القضية^(١) وبقائهم في مكة ثلاثة أيام حسب الاتفاق — كان لكل ذلك أثره الديني والنفسي والمعنوي على قريش والعرب . فلقد " سار رسول الله ﷺ يلي ، والمسلمون معه يلبون " ^(٢) ، وقيل الوصول إلى البيت الحرام كان النبي ﷺ على ناقته القصواء ، وأصحابه " محدقون به يلبون وهم متوشحون السيوف " ^(٣) ، وعند دخولهم المسجد صف المشركون في دار الندوة ينظرون إليهم ، فاضطجع الرسول ﷺ بردائه " وأخرج عضده الأيمن ، ثم قال : رحم الله امرأً أراه اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه ، حتى إذا وراه البيت منهم ، واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرولاً كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرهما " ^(٤) . كما أنه ﷺ سعى بين الصفا والمروة^(٥) ، ثم قام بنحر الهدي عند المروة ^(٦) . فأعمال المسلمين في عمرتهم هذه وإن اتفقت مع ما كان يفعله زوار البيت في ذلك الزمن من تلبية وطواف بالكعبة وسعي بين الصفا والمروة إلا أنهم أدوها بمنهج يختلف عما

(١) انظر في شرح ذلك ابن حجر : فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٥٠٠ ؛ الزرقاني : شرح المواهب ، ج ٣ ، ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

(٣) ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٣٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ .

(٥) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٥٣ .

(٦) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٣٦ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

تعارف عليه المشركون من أهل مكة وغيرهم من العرب ^(١)، فالمسلمون الذين بلغ عددهم ألفين ^(٢) كانوا يتوجهون جميعاً بالتلبية لله وحده ، ثم قاموا جميعاً بالطواف والسعي بحركات وأذكار وأدعية شرعها رسولهم ﷺ ، وأخذ يطبقها ويأمرهم بتطبيقها ، يفعلون ذلك وهم — بلا ريب — بعيدون كل البعد عن التمسح بالأصنام التي كان يعج بها حينذاك المسجد الحرام . فهذا الجمع الكبير من المسلمين أدوا مناسك عمرتهم بمنهج واحد ، والناس من أهل مكة وغيرهم حولهم ينظرون إليهم ويتأملون حركاتهم وأقوالهم ، فترتب على ذلك إقرار مشركي قريش إقراراً فعلياً بدين الإسلام الذي له تصورات ومفاهيمه المختلفة تماماً عن تصوراتهم ومفاهيمهم ، حيث سمحوا لأتباع هذا الدين بممارسة شعائره حول البيت مع وجود أصنامهم وتمثيلهم التي يحتقرها بادئ ذي بدء ، ويدعو إلى نبذها قبل كل شيء ، ويضلل متبعيها ، ويسفه أحلامهم ، " وهذا الاعتراف يعني تراجع قريش ، وتخاذلها عن نصره مبادئها العقدية ، وتساهلها نسبياً في شؤون دينها العتيق المتوارث . وبمقدار هذا التراجع يكون تقدم المد الإسلامي ، ورسوخ مبادئه وأفكاره ، وإن هذا التراجع هو أول النهاية الحتمية التي خطتها قريش في هذا الصلح لنفسها وللمستقبل آلتها " ^(٣).

(١) انظر طريقة المشركين في أداء المناسك في محمد حامد الناصر وخولة درويش : الحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام ، ط. الأولى ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ٣١٧ - ٣٢٢ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٥٠٠ .

(٣) محمد فوزي فيض الله : صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، ص ٢٩١ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن عمرة القضاء بضوابطها المتفق عليها بين قريش والمسلمين في صلح الحديبية صارت لها انعكاساتها النفسية والمعنوية على المشركين ، وقد ظهر ذلك في مشاهد متعددة خلال أحداث هذه العمرة ، فلقد رأى نفر من قريش خيلاً وسلاحاً كثيراً مع المسلمين لما اقتربوا من مكة ، فأسرع هؤلاء النفر إلى قريش ، وخبروها بما رأوا ، ففزعت وأقسمت أنها لم تحدث حدثاً يسوغ للمسلمين غزوها ، ثم بعثت بمكرز بن حفص في رجال لمقابلة النبي ﷺ " وقالوا له : يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، وتدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ؛ السيوف في القرب . فقال النبي ﷺ : إني لا أدخل عليهم بالسلاح . فقال مكرز بن حفص : هذا الذي تعرف به ، البر والوفاء " (١) . وقد أمر الرسول ﷺ بحجز السلاح عند أنصاب الحرم في بطن يأجج (٢) على بعد ثمانية أميال من مكة (٣) . فالرسول ﷺ كان من حقه المشروع تعبئة أصحابه بالخيال والسلاح تحسباً لأي طارئ يقع لهم ، أو خطر يتهددهم في الطريق بين المدينة ومكة أو حتى من قريش نفسها ، والشرط الذي بينه وبينها في الحديبية لم يقيد المسلمين بشيء إلا حال دخولهم مكة للعمرة بأن يكون سلاحهم فقط سلاح الراكب (السيوف في القرب) ، على أن قريشاً في النص السابق شعرت بالرعب من هذا الحشد الإسلامي الذي بلغ تعداده ألفي رجل ، وتجهز أفراداه بالسلاح ، فطفق زعماءها يقلبون الاحتمالات ، ويرجع بعضهم إلى بعض القول ، وقد طارت بهم الظنون في إمكانية غزو المسلمين لهم غير متنبهين إلى أن

(١) ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٣٦ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣١٤ ، ٣٢١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٢٤ .

شرطهم في الحديبية على المسلمين في عدم حمل السلاح كان خاصاً بدخول مكة فقط ، فلم يهدأ بال لهم ، ولم تسكن نفوسهم إلا بعد أن طمأنهم الرسول ﷺ بنفسه أنه لا يدخل عليهم السلاح . وفي هذا كله تصوير للحالة النفسية والمعنوية التي كان يعيشها المشركون في مكة في ذلك الوقت .

ومن المشاهد التي أثرت على المشركين في مكة في هذه العمرة أن النبي ﷺ دخل الحرم وصحبته بجمعهم محققون به ^(١) ، وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه — كما صح — بين يديه ﷺ " يمشي وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مقليله ويُذهلُ الخليلَ عن خليله ^(٢)

فقال له عمر : يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر، فقال له النبي ﷺ : خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل " ^(٣) . وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : " يا عمر إني أسمع ، فاسكت عمر ، وقال رسول الله ﷺ : إيهأ ^(٤) يا ابن رواحة ! قال : قل لا إله إلا الله

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٣٥ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

(٢) خلوا بني الكفار: أي يا بني الكفار ، وعن سبيله: أي عن سبيل الرسول ﷺ ، وعلى تنزيله: أي على حكم تنزيله ، والهام: أي أعلى الرأس ، وعن مقليله: أي موضعه . (المبار كفوري : تحفة الأحوذى ، ج ٨ ، ص ١٤٣ - ١٤٤) .

(٣) الترمذي : السنن ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د. ت) ، ج ٥ ، ص ١٣٩ ؛ ابن بلبان : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ١٣ ، ص ١٠٤ ، ج ١٠ ، ص ٣٨٠ .

(٤) إيه: هي كلمة يراد بها الاستزادة ، ولكن إذا قلت إيهأ بالنصب فإنما تأمره بالسكوت (ابن الأثير : النهاية ، ج ١ ، ص ٨٧) .

وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، قال : فقالها ابن رواحة ، فقالها الناس كما قال " (١) . فعبد الله بن رواحة ﷺ يسير بين يدي النبي ﷺ وأمام هذا الجمع الكبير من المسلمين يرتجز بهذه الأبيات التي ينادي فيها المشركين — بصوت يسمعون — للتنحي عن طريق الرسول ﷺ ، ويهددهم في الآن نفسه بالضرب الموجه في حالة معارضة ذلك . وبعد أن أيدى النبي ﷺ على شعره وجهه إلى أن يردد توحيد الله تعالى الذي نصر عبده ﷺ ، وأعز جنده المؤمنين ، وهزم أحزاب الكفر ، وهنا سمع المسلمون ما لقنه الرسول ﷺ لعبد الله بن رواحة ﷺ من ذكر فراحوا يرددونه هم أيضاً بأنفسهم . بينما كان المسلمون يتحركون ويرددون هذه العبارات والشعارات كان كثير من أهل مكة الرجال والنساء والصبيان ينظرون إليهم ، وقد ثقل على نفوسهم سماع رجز ابن رواحة ﷺ كما صورته الرسول ﷺ بقوله : " فلهي أسرع فيهم من نضح النبل " ، " أي في إيذائهم ونكايتهم وقهرهم أسرع وصولاً ، وأبلغ نكاية من تأثير رمي السهام إليهم " (٢) ، ثم إن في أمره ﷺ بقول عبارات التوحيد " زيادة إغاضة الكفار ، لتأذيتهم بها أكثر من الشعر المذكور ، لا سيما وقد قالوها كلهم معلنين بها " (٣) ، ولذلك لم يتحمل هذا المشهد جماعة من أشرف المشركين ، فتغيبوا عنه " غيظاً وحنقاً ونفاسةً وحسداً " على حد تعبير موسى ابن عقبة (٤) .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ؛ الشامي : سبل الهدى ، ج ٥ ، ص ١٩٢ ؛

الزرقاني : شرح المواهب ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

(٢) الزرقاني : شرح المواهب ، ج ٣ ، ص ٣١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

(٤) ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ .

ومن المناظر التي ربما كان لها وقعها في نفوس المشركين كون النبي ﷺ ضربت له قبة من آدم في الأبطح ، فظل فيها طوال المدة التي أقام فيها بمكة ، فلم يدخل في بيت من بيوتها ، فكان منزله وما يجري حوله بارزاً للغادين والرائحين ، وتحت عيون القادمين إلى البيت والطائفين به . ويبدو أن ذلك أزعج قريشاً كثيراً ، إذ ما إن تمت الأيام الثلاثة حتى تنفست قريش الصعداء وطالبته بالرحيل ، ففي رواية الصحيح أنهم أتوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا : " قل لصاحبك ، اخرج عنا ، فقد مضى الأجل . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم " (١) . وفي رواية أنه لما تم الأجل أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ يتحدث في مجلس من الأنصار " فصاح حويطب نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث . . . ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلاً وحويطياً ، فقال : إني قد نكحت فيكم امرأة [وهي ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها] ، فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونصنع ونضع الطعام ، فنأكل وتأكلون معنا " ، فردا عليه : " نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا " (٢) ، وفي رواية أن القرشيين " قالوا : لا حاجة لنا بطعامك ، فاخرج عنا " (٣) ، فأصدر أمره ﷺ لأصحابه بالقول : " لا يمسين بها أحد من المسلمين " ، فاستجابوا جميعاً لأمره ، فلم يتخلف فيها أحد منهم (٤) . فالمشركون تضايقوا من وجود الرسول ﷺ في الأبطح بمكة ، بحيث إنهم سارعوا بمطالبته بالخروج بمجرد أن اكتملت المدة المتفق عليها في صلح

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٥٢ .

(٢) البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣١٥ - ٣١٦ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(٤) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

الحديبية ، وناشدوه في ذلك بإلحاح شديد ، ولم يجاملوه على عرضه بالبقاء ولو قليلاً حتى يصنع طعاماً بمناسبة نكاحه ميمونة بنت الحارث — وهي امرأة منهم — ليشاركوا المسلمين في تناوله ، بل كان ردهم عليه بعيداً عن الأدب ، إذ قالوا له ﷺ : " لسنا بحاجة إلى طعامك " .

وعلى العموم فعمرة القضاء التي جرت بناءً على اتفاق صلح الحديبية كانت على قصر مدتها بالنسبة لقريش والعرب جميعاً نقطة تحول كاملة ، فقد دخل محمد ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين رافعين أصواتهم بالتلبية والذكر ، وعبارات الفخر بالدين الذي يحملون ، والتضحية في سبيله ، غير مباينين بمن يسمعونهم من الكافرين ، وزاولوا عمرتهم بمقتضى تعاليم نبهم ﷺ ، ثم خرجوا بطواعيتهم من مكة مع أنه ليس لدى قريش قوة تحول بينهم وبين بقائهم فيها ، فرأى العرب يومها في هذه المواقف " معنى هذا الدين ، ومفهوم هذا الرسول ، وعظمة هذه الرسالة ، وانتهت قريش بمبادئها وسلطانها وتحديدها . . . " (١) .

ثالثاً : لقد رأى أهل مكة خلال صلح الحديبية وعمرة القضاء من ترابط المسلمين وتكاتفهم وانضباطهم ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة الصاعدة لا يمكن مواصلة حربها ، ولا الوقوف في وجهها ، وحينئذ تبددت روح العناد لدى المشركين ، وأيقن عقلاؤهم أن الخير كل الخير في الانضمام إلى ركب هذه الجماعة ، واعتناق دينها ، وفيما عبر به عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من كلمات في حديثهما عن إسلامهما ما يجسد هذا التحول عند عقلاء القرشيين . فمما قاله عمرو في قصة إسلامه الطويلة بعد أن

(١) منير محمد الغضبان : المنهج التربوي للسيرة النبوية " التربية الجهادية " ، ط. الثانية ، مكتبة المنار ،

الأردن ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .

ذكر نجاته في بدر وأحد والخندق : " فلما حضر الحديبية ، وانصرف رسول الله ﷺ في الصلح ، ورجعت قريش إلى مكة جعلت أقول : يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه ، ما مكة بمنزل ، ولا الطائف ، وما من شيء خير من الخروج . . . " ، وبعدها يذكر أنه جمع رجالاً من قومه يسمعون منه ، ويقدمونه فيهم ، فشرح لهم ما رصده من تطور حال الرسول ﷺ ، فقال لهم " تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً " ، ثم اقترح عليهم اللحاق بالنجاشي ، فوافقوه على ذلك ، ثم ذكر وصولهم إلى هناك ، ودخوله على النجاشي ، وطلبه منه أن يسلمه مبعوث النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري الذي كان قدم في مهمة آنذاك ، وكيف أن النجاشي غضب من طلبه وضربه على أنفه وقال له : " يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، والذي كان يأتي عيسى لتقتله . قال عمرو : فغير الله قلبي عما كنت عليه ، وقلت في نفسي : عرف هذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت ! ، ثم قلت : أتشهد أيها الملك بهذا ؟ قال : نعم اشهد به عند الله يا عمرو ، فأطعني واتبعه ، فوالله إنه لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعني على الإسلام " ، ثم إنه قدم إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، وأعلن إسلامه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ^(١).

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤١ - ٧٤٥ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٦ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٩ . وانظر رواية أخرى في : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ . وإسلام عمرو وخالد وعثمان رضي الله عنهم وقدمهم المدينة دون أن يردهم النبي ﷺ إلى قريش حسب أحد شروط الصلح — يدل على أن ذلك حدث بعد تحلى قريش عن هذا الشرط والذي سنتطرق له فيما بعد .

فعمرو بن العاص بعد الحديبية أيقن بعلو أمر الرسول ﷺ ، وصار يرسم في نفسه ما سيحدث عند دخول المسلمين مكة في عمرة القضاء في السنة القابلة السّتي رضىت بها قريش في الصلح ، ولذا عزم مع جماعة من أصحابه على عدم البقاء في مكة ، بل ولا في الجزيرة العربية كلها ، وقرر الحياة في الحبشة لما بينه وبين حاكمها من صداقة ^(١) ، وكانت المفاجأة هناك ؛ إذ رأى أن النجاشي يؤمن بالنبي ﷺ إيماناً جازماً ، فعندها تساءل في نفسه كيف يكون العرب وحتى العجم عرفوا الحق وهو ما زال يخالف ، وبينما كان يحدث نفسه بذلك إذ أقسم النجاشي بأن النبي ﷺ سيظهر على من خالفه ، مستشهداً بخبر انتصار موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون وجنوده ، فكان علو أمر الإسلام قد تشبعت به نفس عمرو بشكل كبير بعد صلح الحديبية وما ترتب عليه من شروط ، وذلك بحكم معاشته لواقع الأحداث ، فلما قابل صديقه النجاشي — وهو من العجم — وجد عنده يقيناً جازماً بظهور الإسلام رغم أنه كان بعيداً عما عايشه عمرو وعائنه من مسيرة هذا الدين الواقعية في الجزيرة العربية ، فصار هذا اللقاء وتلك المحاورة مع النجاشي نهاية ذلك الصراع النفسي الذي كان يضطرم في داخل عمرو بن العاص فيما يتعلق بالإسلام ، فأقبل عليه مقتنعاً به .

وفي كلمات خالد بن الوليد الواردة في حديثه عن إسلامه نموذج آخر أيضاً للتعبير عن ذلك التحول إلى الإسلام بعد صلح الحديبية وعمرة القضاء من قبل القرشيين ، فبعد أن ذكر خالد شهوده المواطن في مواجهة المسلمين ، واعتقاده في كل موطن منها بأن محمداً ﷺ سيظهر ، أشار إلى خروجه لصد الرسول ﷺ في غزوة الحديبية ، ثم قال : " فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعت قريش

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

بالراح ، قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ إلى النجاشي ، فقد اتبع محمداً ، وأصحابه عنده آمنون . فأخرج إلى هرقل ، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقي ؟ " . ثم ذكر دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة في عمرة القضاء ، وتغيبه عن ذلك المشهد ، وبحث أخوه الوليد بن الوليد رضي الله عنه ، وكتابته له كتاباً يهيب فيه استدراك نفسه فيما فات بالدخول في الإسلام لاسيما وأن الرسول ﷺ سأل عنه ، وقال في حقه : " ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره " ، ثم قال خالد : " فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام ، وسرني مقالة رسول الله ﷺ " ، ثم بين كيف أنه عرض على بعض المشركين مصاحبته إلى المدينة ، ولكنهم لم يوافقوه مما اضطره إلى الخروج وحده ، وبعدها التقى عثمان ابن طلحة وهو خارج من مكة ، فذكر له ما صار الأمر إليه ، فوافقه على رأيه وخرج معه ، ثم التقى خالد وصاحبُه في وسط الطريق عمرو بن العاص ^(١) الذي كان قد قدم من الحبشة لإعلان إسلامه في المدينة — كما مر — ، فلما سأله عمرو عن مقصده رد عليه بقوله : " والله لقد استقام المنسم ^(٢) ، إن الرجل لنبى ، أذهب — والله — فأسلم ، فحتى متى ؟ " ^(٣) .

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ ٧٤٨ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٤ ، ص ٣٤٩

٣٥١ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ ٤٥٢ . وانظر الخبر مختصراً في : ابن سعد :

الطبقات ، ج ٧ ، ص ٣٩٤ .

(٢) استقام المنسم : مثل ، والمنسم هو مقدم خف البعير ، ومعناه هنا الطريق ، أي استقام الطريق وتبين

(السهيلي : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط .

مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ج ٦ ، ص ٣٨٦) .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ .

فخالد في عباراته هذه يحكي الشعور الذي أمسى يخيم على عقلاء القرشيين عقب انصرافهم مباشرة من الحديبية مصالحين للمسلمين بعد مدافعتهم عن مكة إذ أيقن في داخله بأن قريشاً قد انتهى أمرها ، ولذا أخذت نفسه تحدّثه في المخرج الذي يمكن أن يخلصه مما هو فيه ، ففكر باللجوء إلى النجاشي ، لكن رد على نفسه بأن ذلك غير آمن ، لأن النجاشي من أتباع محمد ﷺ ، وفوق ذلك فإن في بلده يعيش المسلمون المهاجرون ، ثم فكر في الخروج إلى هرقل ملك الروم ، ولكن عز عليه أن يخرج من دين آبائه إلى الدين النصراني أو اليهودي ، وعلاوة على ذلك يقيم بين العجم ، وفي الوقت عينه ليس أصيلاً بل تابعاً . ثم عاد يفكر في البقاء في داره في مكة بقية عمره ، فكانت هذه الفكرة والهواجس تدور في رأسه ، وتسيطر على تفكيره حتى دخل الرسول ﷺ ومعه أصحابه مكة للعمرة فغيب وجهه عنهم ، لكن بالكتاب الذي كتبه له أخوه الوليد ، ودعاه فيه إلى اعتناق الإسلام ، وذكر فيه نظرة النبي ﷺ له وثنائه عليه — انقطعت عنه تلك الفكرة والهواجس وقرر التحول عن مكة ، ولكن ليس إلى الحبشة ولا إلى بلاد الروم ، بل إلى المدينة لإعلان إسلامه هناك ، زد على ذلك أنه شرع من ساعتها قبل يبرح مكة بإقناع غيره من أهلها على الاقتداء به ، والمسير معه إلى المدينة ، فكان لقاءه أولاً بعثمان بن طلحة ، ثم بعمر بن العاص ثانياً بعرض الطريق .

وهكذا من خلال ما ورد على لسان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد من عبارات في حديثهما عن إسلامهما — رأينا أن صلح الحديبية أحدث هزة كبيرة في حياة عقلاء المشركين حولت مواقفهم نحو الإسلام ، فأيقنوا أن الغلبة — لا محالة — له ، فلا فائدة من استمرار حربه ، واعتراض سبيله ، وقد صاحب

يقينهم هذا اقتناعاً عميقاً بوجوب اعتناقه ، لأنه هو دين الله الحق الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ .

رابعاً : روى ابن سعد^(١) أن " رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ٠٠ فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ٠٠٠ " وهؤلاء الستة هم: عمرو بن أمية الضمري^(٢) إلى النجاشي ، ودحية بن خليفة الكلبي^(٣) إلى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمي^(٤) إلى كسرى ، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي^(٥) إلى المقوقس ، وشجاع بن وهب الأسدي^(٦) إلى الحارث بن

(١) الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ؛ الشامى : سبل الهدى ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ .

(٢) عمرو بن أمية بن خويلد الضمري ، أسلم بعد معركة أحد ، فكان أول مشهد شهده بعد إسلامه وقعة بئر معونة ، وقد توفي في أواخر خلافة معاوية ؓ قبل سنة ٦٠ هـ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ ٢٤٩ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ج ٤ ، ص ١٨١) .

(٣) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي ، أسلم قديماً ، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ بعد بدر التي لم يحضرها ، وقد عاش حتى خلافة معاوية ؓ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ ٢٥١ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد الجاهلي ، ط. دار فضاء مصر ، القاهرة ، ق ٢ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ ، ابن حجر : الإصابة ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ٣٨٦) .

(٤) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي ، من قدامى المسلمين بمكة ، وهاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وقد مات بمصر في عهد عثمان ؓ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٨٩ ١٩٠ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ٢١٤) .

(٥) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير اللخمي ، من حلفاء بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، أسلم في مكة ، وهاجر مع المسلمين إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ ، وكانت وفاته بالمدينة سنة ٣٠ هـ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ١١٤ ١١٥ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ٢ ، ص ٤ ٦) .

(٦) شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي ، من المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، وقد استشهد في وقعة اليمامة عام ١٢ هـ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٩٤ ٩٥ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة . ج ٢ ، ص ٦١١) .

أبي ثمر الغساني^(١)، وسليط بن عمرو العامري^(٢) إلى هوزة بن علي الحنفي^(٣)^(٤)، ثم تابع ﷺ بعد ذلك حتى وفاته إرسال الرسل من أصحابه إلى زعماء آخرين^(٥). فالنبي ﷺ بتوقيعه الهدنة مع قريش لمدة عشر سنوات اطمأن بأن المواجهات العسكرية الكبيرة المباشرة التي كانت تحمل لواءها هذه القبيلة وتساندها القوى الأخرى من قبائل عربية وثنية وعناصر يهودية قد خبا أمرها ، فلم يبق في المواجهة المباشرة مع المسلمين إلا قوى محدودة أو صغيرة متفرقة ، ولذا رأى ﷺ أن المجال صار مواتياً للعمل في دعوة البعيدين عنه^(٦) الذين يتعذر عليه الوصول إليهم ، واللقاء بهم ، ومحادثتهم بنفسه ، سواء في داخل الجزيرة العربية أو خارجها من ملوك العالم وأمراء العرب وشيوخهم ، فكتب إليهم رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ، إذ أنه ﷺ مأمور بتبليغ رسالته إلى الناس كافة . وكان النص على عالمية رسالته ﷺ وعمومها للأحمر والأسود من عرب وعجم

(١) الحارث بن أبي ثمر الغساني ملك تخوم الشام (ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٣٣٩) وهو زعيم العرب النصراني هناك (ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٤٣) وكان مقره غوطة دمشق ، وقد توفي عام الفتح على نصرانيته (ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٦١ ، ج ٣ ، ص ٩٤) .

(٢) سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود ينتهي نسبه إلى بني عامر بن لوي ، من قدامي المسلمين في مكة ، ومن المهاجرين إلى الحبشة ، وقد شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، وكانت وفاته في وقعة اليمامة شهيداً سنة ١٢ هـ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٤ ، ص ٢٠٣) .

(٣) هوزة بن علي الحنفي ، صاحب اليمامة ، وهو من ملوك العرب المتوجين بها ، وقد اشترط للدخول في الإسلام أن يجعل له النبي ﷺ بعض الأمر ، فأبى النبي ﷺ عليه ذلك ، وقد توفي بعد فتح مكة كافراً ، وكان يعتنق النصرانية (الكلاعي : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ، ط. الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٥) .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. دار سويدان ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

(٦) أحمد أحمد غلوش : الدعوة الإسلامية ، ط. الثانية ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٤٢٢ .

قد جاء في عدد من الآيات القرآنية التي نزلت في مكة ، أي في العهد المكي للدعوة^(١)، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٣)، لكن الرسول ﷺ في مراحل دعوته كلها سواء في مكة أو المدينة ، في حله وترحاله ، وسلمه وحره كان يستخدم ما يتاح له من أساليب ووسائل تلائم الحالة الفكرية والنفسية التي عليها المستهدفون بالدعوة ، وتكون ذات مردود إيجابي أكبر بكثير مما لو استخدم غيرها^(٤). فالرسول ﷺ بعد صلح الحديبية استخدم الرسائل لدعوة هؤلاء الحكام والزعماء إلى الدين الإسلامي ، وقد حرص على أن تكون مقبولة لديهم ، إذ لما قيل له إنهم لا يقبلونها إلا بخاتم صنع خاتماً^(٥) ، كذلك اختار من أصحابه من رآه أهلاً لحملها ، كما أنه بجانب تضمين هذه الرسائل الدعوة إلى الإسلام ، والإيمان بنبوته ﷺ ، وترغيب المدعو بالأجر إذا قبل الإسلام ، وترهيبه من الإثم إذا أباه وحجبه عن قومه — فقد روعي في كل رسالة منها احترام المخاطب باللقب الذي يحفظ له مكانته بين قومه^(٦) ، كما روعي أيضاً حاله ، فإن كان من أهل الكتاب ذكر نقاط التقارب بين دينه والإسلام ، وإن كان من قوم علموا بالإسلام قبل مجيء

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط. التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ،

ج ٢ ، ص ١١٤٨ ، ج ٣ ، ص ١٣٧٩ ، العمري : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٥٦ .

(٢) سورة سبأ ، آية ٢٨ .

(٣) الأعراف ، آية ١٥٨ .

(٤) عبد الرحمن حبنكة الميداني : الحضارة الإسلامية ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٨ هـ /

١٩٩٨ م ، ص ٣٥٢ ؛ زياد العاني : أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ، ط. الأولى ، دار

عمار ، عمان ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ؛ الشامي : سبل الهدى ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ .

(٦) العمري : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ .

الكتاب مالت لغة الخطاب إلى الشدة^(١) . ولقد أحدثت مكاتبات النبي ﷺ إلى هؤلاء الملوك والزعماء أثراً عميقاً في حقل الدعوة الإسلامية ، وبرز ذلك في عدة جوانب ؛ الأول : أنه أسلم عدد منهم كنجاشي الحبشة ، وفروة بن عمرو الجذامي عامل عَمَّان من الأردن ، والمنذر بن ساوي حاكم البحرين ، وجيفر وعبد ابني الجلندا زعيمَي عُمان وغيرهم^(٢) ، فأسلم مع قسم من هؤلاء كثير من أتباعهم ، فانتشر الإسلام في أقطار متعددة مثل اليمامة والبحرين واليمن وحضرموت ، كما انتشر بشكل محدود في الحبشة^(٣) . الجانب الثاني : أن هذه المراسلات " أتاحت الفرصة لعدد عظيم من الناس أن يعرفوا أهداف الدين الجديد وغاياته ، مما جعل قلوب كثيرين منهم تهوي إليه ، سواء تظاهروا بذلك أم أبقوه في طي الكتمان " ^(٤) . الجانب الثالث : أن تلك الكتب النبوية وما صاحبها من تحركات أكسبت الإسلام دعاية واسعة النطاق في داخل الجزيرة وخارجها ، ففي الحديث الطويل الذي قص فيه أبو سفيان ؓ استدعاء هرقل له في الشام لما وصله كتاب النبي ﷺ ، وسؤاله عن الرسول ﷺ وأحواله ، قال هرقل لما انتهى من التعليق على إجابات أبي سفيان: " فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه " ^(٥) . فهرقل حاكم الإمبراطورية البيزنطية إحدى القوتين

(١) غلوش : الدعوة الإسلامية ، ص ٤٢٣ ؛ العاني : أساليب الدعوة والتربية ، ص ٣٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) محمود شيت خطاب : سفراء النبي ﷺ ، ط. الأولى ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٤) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٣١٧ .

(٥) البخاري : الصحيح ، ج ١ ، ص ٧ ، ٨ .

العظميين اللتين تتقاسمان النفوذ في العالم عصرذاك حين يقول هذا الكلام بمحض
جمهور من الناس لاشك أن فيه دعاية كبيرة للنبي ﷺ وللدين الذي جاء به ،
ولذلك لما أخرج أبو سفيان وأصحابه بعد أن كثر الصخب في مجلس هرقل ،
وارتفعت الأصوات عقب الفراغ من قراءة كتاب النبي ﷺ قال أبو سفيان
لأصحابه — وكان وقتها على الشرك — مصوراً ما لمسه من اشتهاش شأن النبي
ﷺ ودينه الإسلام: " لقد أمرُ ابنُ أبي كبشة^(١) إنه يخافه ملك بني الأصفر
فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام "^(٢). كما أن إكرام
المقوقس حاطب بن أبي بلتعة ﷺ رسول رسول الله ﷺ إليه ، ثم إهداءه للنبي ﷺ
بغلة وجاريتين^(٣) ، وكسوة وأموالاً وحماراً^(٤) كان له أثره الإعلامي في الدعاية
للإسلام ، فالمقوقس يمثل مكانته حاكماً لمصر يستقبل حاطباً بالحفاوة لكونه
رسولاً للنبي ﷺ ، وليس هذا فقط بل يحمله له هدايا عينية ذات قيمة لا شك أن
مثل هذا سيتناقله الناس في ذلك الوقت ، ويتحدثون به في بواديهم وحواضرهم
وهذا كله كسب كبير للإسلام . كذلك من ناحية أخرى فإن ما قام به كسرى
من تمزيق لرسالة النبي ﷺ إليه ، ثم تصعيده الأمر بإرساله إلى عامله في اليمن
بأذان^(٥) بأن يبعث من عنده من يذهب إلى المدينة ويأتي بذلك الذي جرؤ عليه

(١) أمر: أي عظم ، وابن أبي كبشة أراد النبي ﷺ بذلك ، وأبو كبشة قيل إنه أحد أجداده ﷺ ، وعادة
العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض ، وقيل أبو كبشة أبوه من الرضاعة ، وقيل رجل من
خزاعة خالف قريشاً في عبادتهم وعبد الشعراء ، فنسبوه إليه للاشتراك في مطلق المخالفة (ابن
حجر: فتح الباري ، ج ١ ، ص ٤٠) .

(٢) البخاري : الصحيح ، ج ١ ، ص ٩ . وانظر مسلم : الصحيح ، ج ٢ ، ص ١٣٩٧ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ، ج ٨ ، ص ١١٢ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، ج ٨ ، ص ٢١٢ ، ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ،
ص ٥١٤ .

(٥) بأذان من أبناء الفرس الذين قدموا إلى اليمن ، وكان مقر حكمه في صنعاء ، وقد اعتنق الإسلام
سنة ١٠ هـ (ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ؛ الكلاعي : الاكتفاء ، ج ١ ، ص
١١٤ ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ١ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩) .

بالكتابة ، ثم تنفيذ ذلك العامل ما طلب منه ، ووصول رجلين لهذا الغرض ، ومقابلة الرسول ﷺ لهما ، ثم إخباره ﷺ لهما بمقتل كسرى على يد ولده ، ثم وصول نبأ مقتل كسرى مثلما خبر النبي ﷺ به^(١) — كل ذلك أكسب الإسلام دعاية مدوية غير متوقعة ، وقد تجلت تلك الدعاية واضحة في صورتين ، الأولى: أن ما صنعه كسرى تجاه الرسول ﷺ تسامع به العرب في الجزيرة العربية وغيرها ، وصاروا يتابعون أحداثه لحظة بلحظة حتى قال القرشيون وأهل الطائف بعضهم لبعضهم: " ابشروا فقد نصب له كسرى ٠٠٠ ، كفيتم الرجل ! " ^(٢) ، أما الصورة الثانية: فقد اتضحت فيما حصل لبازان ومن تحت حكمه في اليمن نتيجة ما علموه من حال النبي ﷺ بعد تنفيذ طلب كسرى ؛ ذاك أنه لما رجع مبعوثا باذان إليه ، وأخبراه بما خبر به الرسول ﷺ قال: " والله ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول ، ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقاً ٠٠٠ إنه لني مرسل ، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا " . ولم ينشب أن جاء الخبر من فارس بقتل كسرى ، فقال باذان: " إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء^(٣) معه من فارس من كان منهم باليمن " ^(٤) .

خامساً : أعطت هذنة الحديدية الرسول ﷺ الفرصة لضرب اليهود في خير وما يليها الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويسعون مع مشركي مكة وغيرهم لتقويض دولة الإسلام في المدينة ، وهدم أركانها ، فلقد أصبحت خير

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، ج ٢ ، ص ٦٥٤ — ٦٥٦ ، ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٥٠٨ .
- ٥١٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٣) الأبناء في اليمن مصطلح يطلق في ذلك العصر على أولاد الفرس الذين سبهم كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لقتال الأحباش (ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ١ ، ص ٣٤٩) .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ .

بالذات — بعد جلاء اليهود إليها من المدينة — تضم أكبر التجمعات اليهودية في الجزيرة العربية ، وفيها استقر عدد من رؤساء الطوائف اليهودية ، وأخذوا يدبرون منها المؤامرات للقضاء على الإسلام والمسلمين^(١) ، لعل من أوسعها نطاقاً ، وأشدّها خطورة ما قاموا به من تأليب للأحزاب على المدينة قبل سنتين تقريباً من صلح الحديبية^(٢) . ولذلك فالرسول ﷺ لم يلبث في المدينة إلا قليلاً بعد عودته من الحديبية حتى أمر أصحابه الذين شهدوا معه تلك الغزوة بالاستعداد للخروج شمالاً إلى هؤلاء اليهود^(٣) ، وما هي إلا أيام معدودات حتى تمكن المسلمون من فتح حصون خيبر حصناً بعد حصن ، وبعدها توجهوا إلى بقية الجيوب اليهودية في فلك ووادي القرى وتيماء وأخضعوها^(٤) . وبفتح خيبر وما جاورها من مواقع يهودية بعيد صلح الحديبية يكون المسلمون قد تخلصوا من عدو غادر طالما تأمر عليهم ، وخطر داهم كان يؤرقهم منذ سنوات ، وقد تلاشت — في الآن نفسه — القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية لهؤلاء

(١) محمد أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، ط. الثانية ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ج ٢ ، ص ٤١٤ ؛ عبد الله الخرعان : السيرة النبوية ، ط. الأولى ، دار إشبيلية الرياض ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ١١٨ . يذكر يعقوبي أن عدد المقاتلين فيها عشرون ألفاً (تاريخ يعقوبي ، ط. دار صادر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) قيل إن الرسول ﷺ أقام بالمدينة بعد رجوعه من الحديبية ذا الحجة ، ثم خرج إلى خيبر في النصف الثاني من محرم سنة ٧ هـ (ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٥٥) وقيل إنه خرج إليه في صفر ، أو في غرة ربيع الأول (الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٣٤) .

(٤) انظر التفاصيل في ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ - ٤٩١ ، المقرئ : إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ١ ، ص ٣٠٦ - ٣٢٦) .

اليهود في جزيرة العرب أجمع . ثم إنه بهذا الفتح انزاحت تلك التجمعات اليهودية التي كانت تشكل حاجزاً يمنع المسلمين من النفاذ بأمان وحرية إلى المناطق الواقعة إلى الشمال من المدينة ، وتبليغ رسالة الإسلام إليها . ومن ناحية أخرى فإن فتح خيبر كان أول فتح إسلامي لحاضرة من الحواضر المستقرة الحدود^(١) ، ذات الحصون والمساكن والمزارع ، وقد حصل المسلمون منها على مغام كثيرة ، سواء ما حصلوا عليه من أموال وأطعمة ونحوها بعد الفتح مباشرة أو ما أصبح يدر عليهم من مزارعها بعد ذلك ، إذ ترك الرسول ﷺ اليهود يعملون في تلك المزارع على النصف من إنتاجها^(٢) ، وقد كان لهذا كله أثره البين على الوضع الاقتصادي للمسلمين ودولتهم في المدينة ، فترى المهاجرين عقب فتح خيبر يردون على الأنصار منائحهم التي كانوا قدموها لهم عند الهجرة من مكة إلى المدينة لاستغنائهم بما غنموه من هذا الفتح^(٣) . كما توافر لدى المسلمين مزيد من الأطعمة بعد هذا الفتح ، لاسيما التمر الذي كان يمثل طعاماً رئيساً في ذلك الزمان^(٤) . ثم إن هذه المغام عموماً انعكس أثرها على الدولة

(١) صالح موسى درادكة : العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، ط. الأولى ، الأهلية للنشر ، عمان ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢) ابن قيم : زاد المعاد ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٦٣٦ ؛ المقرئ : إمتاع الأسماع ، ج ١ ، ص ٣١٧ - ٣٢٣ .

(٣) البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٢٦ ؛ مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٣٩١ - ١٣٩٢ .

(٤) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٥٠ . ومما يدل على أن التمر كان طعامهم الرئيس في ذلك الحين ما قالته عائشة رضي الله عنها في وصف معيشة النبي ﷺ وآله ، إذ قالت : « إن كنا آل محمد ﷺ لنمكث شهراً ما نستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء » . وذكرت أنهم قد يمكثون ثلاثة أشهر ما يوقدون بنار ، فقل لها « فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء » . (مسلم : الصحيح ، ج ٤ ، ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ ؛ البخاري : الصحيح ، ج ٥ ، ص ٢٣٧٣) .

الإسلامية الناشئة ، إذ ارتفعت مواردها المالية ارتفاعاً ملحوظاً ، وأصبح الرسول ﷺ قادراً على الإنفاق على شؤون المسلمين أكثر من أي وقت مضى^(١) . ولقد جزم بعض العلماء بأن فتح خيبر هو المقصود بالفتح القريب الوارد ذكره في سورة الفتح التي نزلت على الرسول ﷺ عند منصرفه من الحديبية ، قال ابن حجر^(٢) : " أما قوله تعالى : ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فالمراد به فتح خيبر على الصحيح ، لأنها هي التي وقعت فيها المغام الكثيرة للمسلمين " .

سادساً : بمصالحة النبي ﷺ مشركي مكة في الحديبية تبعثت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة ، وانتكث شملها ، وقد زاد من ذلك أن قريشاً انطوت على نفسها ، وجمدت على سياستها النفعية الخاصة ، واهتمت بشؤونها التجارية^(٣) ، فصار بإمكان المسلمين الانفراد بهذه القبائل ، وتوجيه الضربات إليها قبيلة إثر قبيلة ، لاسيما وقد بلغت الدعوة ، فاستكبرت عن الإيمان بها ، ونفرت عن الإذعان لسلطانها^(٤) . ولذلك نلاحظ أن النبي ﷺ كثف السرايا والبعوث إلى الأعراب بعد صلح الحديبية ، فبلغ عددها في فترة الصلح من محرم سنة ٧ هـ الذي بدأ فيه إرسال أول تلك السرايا^(٥) حتى آخرها في رمضان

(١) صالح موسى درادكة : العلاقات العربية اليهودية ، ص ٣٧٧ .

(٢) فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٤٢٤ .

(٣) محمد الغزالي : فقه السيرة ، ط. الثالثة ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٣٣٥ .

(٤) محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، ط. دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ،

ص ٣٧٢ .

(٥) أولها وقعة ذي قرد قبل خيبر بثلاث ليال (البخاري الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٣٦ ؛ مسلم :

الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤٤٠) ، فإذا أخذنا بالقول أن خيبر كانت في آخر المحرم سنة ٧ هـ ، كانت هذه السرية أيضاً في المحرم .

سنة ٨ هـ^(١) أي قبل فتح مكة — بلغ عددها في واحد وعشرين شهراً ثلثي عشرة سرية^(٢)، وقد وجهها النبي ﷺ على مختلف الاتجاهات ، فوصلت جنوباً إلى تربة قرب الطائف ، وشرقاً إلى داخل نجد^(٣)، وشمالاً إلى الشام^(٤) ، وغرباً إلى ساحل البحر^(٥) ، وقد تحقق الهدف الأكبر من بعثها وهو " توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة " ^(٦).

سابعاً : كان صلح الحديبية من أكبر أسباب انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ، ففيما يتعلق بالمسلمين ومشركي مكة وأحلافهم فقد عاشوا معاً جو السلام الخالي من الغل والخداع ، والإسلال والإغلال — كما جاء في نص المعاهدة — سنحت الفرصة للمسلمين على مصراعيها للقاء بالمشركين ممن شاوروا من أهليهم وأقاربهم وحلفائهم ومن عامة الناس ، واطلاعهم على حقيقة

(١) وهي سرية أبي قتادة إلى بطن إضم ، وكانت في أول رمضان سنة ٨ هـ (ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٣٣) .

(٢) تتبعنا ما أورده بتحقيقات موفقة مهدي رزق الله أحمد ، فجاءت بهذا العدد (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ط. الأولى ، مركز الملك فيصل ، الرياض ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٤٩٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٥٥) ولقد حددها الكاتب الإنجليزي مونتجمري وات بسبع عشرة غزوة ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : الأول قبائل كفت عن معارضة المسلمين ، ولكنها لم تهدأ تماماً كغطفان ، الثاني : غزوات ضد فئات من هوازن ، الثالث : غزوات نحو الشمال (محمد في المدينة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ص ٧٧ - ٧٨) .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٣٧٦ .

(٦) الغزالي : فقه السيرة ، ص ٣٥٢ .

هذا الدين الإسلامي ، وعرض تعاليمه ومحاسنه ، وأصبح المشركون من طرفهم أيام الصلح يلتقون بالمسلمين دون حرج ، ويجلسون معهم ، ويتبادلون الأحاديث معهم ، بل أتى بعض المشركين في زمن الصلح من مكة إلى المدينة لزيارة أقاربهم المسلمين ، فوجد المسلمون حرجاً في صلتهم حتى سألوا النبي ﷺ عن ذلك ، فأذن لهم بالصلة ، فمما ثبت في هذا الباب عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: " قدمت أُمي من مكة إلى المدينة في هدنة قريش ، وهي مشركة ، فقلت يا نبي الله : إن أُمي أتت راغبة ، أفأصلها ؟ ، فقال لها نبي الله ﷺ : نعم صليها " ^(١). لقد توافر هذا كله بسبب الصلح بعد أن ظل الجو — قبله حوالي ست عشرة سنة — مشحوناً بالعداء المتواصل ، كانت قريش وحلفاؤها لا يكلون في غضون ذلك عن الكيد للإسلام ، وإثارة الشبهات حوله ، والتنفير من أتباعه ، وتشويه صورتهم ، واستخدام كل وسيلة للحيلولة بين الناس والدخول فيه . يقول القسطلاني ^(٢) مصوراً حال المشركين مع الإسلام قبل الهدنة ثم بعدها: " أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي ، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة ، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين ، وجاؤوا إلى المدينة ، وذهب المسلمون إلى مكة ، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوه ، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة ، وأعلام نبوته المتظاهرة ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته ، وعاینوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت

(١) ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، ج ٢ ، ص ١٩٧ . انظر روايات أخرى بألفاظ مختلفة في البخاري : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ ، ج ٣ ، ص ١١٦٢ ، مسلم : الصحيح ، ج ٢ ، ٦٩٦ ، أحمد : المسند ، ج ٦ ، ص ٣٥٥ .

(٢) المواهب اللدنية ، ج ١ ، ص ٥٠٣ .

نفوسهم إلى الإيمان ، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة ، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام " . ويرز ابن القيم^(١) جهود المسلمين في دعوة المشركين في فترة الصلح بقوله: " واختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، وأسمعوهم القرآن ، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وظهر من كان مختفياً بالإسلام ٠٠٠ " . ويشير ابن كثير^(٢) إلى شيء من هذا بقوله: " وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان " . وقد نظر ابن شهاب الزهري إلى صلح الحديبية من زاوية انتشار الإسلام بين الناس في ظلاله ، فاعتبره فتحاً فريداً في تاريخ المسلمين لم يمر عليهم فتح قبله ، وقد شرح الظروف التي أثرت في اتساع رقعة الإسلام خلال مدة السلام فقال: " فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر " ^(٣) . وقد عقب ابن هشام^(٤) على هذا الكلام مؤكداً له ، ومدللاً على صحة ما ورد فيه — بقوله: " والدليل على ما قال الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ، في قول جابر

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ . انظر كلاماً قريباً من كلام ابن القيم قاله ابن حجر : فتح الباري ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .

(٢) تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٦١١ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

(٤) السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

ابن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف " . وبعد أن وصف الواقدي^(١) الصلح بقوله: " ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية " عبر عن أثره في انتشار الإسلام بكلام شبيه بما نقلناه عن الزهري آنفاً ثم ذكر بعض الأمثلة لمن أسلموا ، وحدد بالضبط مدة السلام ، وأشار إلى المساحة التي امتد إليها الإسلام ، فقال: " حتى دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك والحرب ؛ عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وأشباههم . وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنى وعشرين شهراً ، دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر ، وفشا الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب " .

وما لا مشاحة فيه أن هذا الجم الغفير من الداخلين في الإسلام كان أثراً من آثار الصلح بين المسلمين وقريش إلا أنه لا يمكن إن نعد دخولهم كلهم في الإسلام كان ابتداءً نتيجة ما قاله هؤلاء المؤرخون من حيث إن الحرب وضعت أوزارها بين المسلمين وقريش ، فأمن بعضهم بعضاً ، والتقى بعضهم بعضاً ، وتحاوروا في شأن الإسلام ، وقرئ على المشركين جهرة القرآن ، لأن هذه الحالات كانت تشمل فقط المشركين من قريش ومن يرتبط معهم في عهد أو حلف ، وقريش وأحلافها أثناء مدة الصلح لم يكونوا كثرة بالنسبة لعموم العرب في الجزيرة العربية . ومعلوم مما سبق أن النبي ﷺ لما صالح قريشاً التي كانت القوة الرئيسة المحادة للإسلام نشط خلال ذلك في مواجهة القوى الأخرى عسكرياً ، وقد تجسد ذلك في قضائه على اليهود في خيبر وما جاورها ثم في تعقبه بالسرايا والبعوث لما استطاع الوصول إليه من القبائل العربية في

(١) المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ .

طول الجزيرة وعرضها ، كما أرسل في الآن عينه الكتب إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل في داخل جزيرة العرب وخارجها لدعوتهم إلى الإسلام . ولا غرو أن لهذه العمليات العسكرية سواء أثناء تنفيذها ، أو ما تخلف عنها بعد من نتائج ، وكذلك تلك الكتب النبوية — أن لذلك كله أثر في نشر الإسلام بين الناس ، فعلى سبيل التمثيل أمر الرسول ﷺ في غزوة خيبر حامل رايته على بن أبي طالب ﷺ أن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل الالتحام بهم^(١) ، وقد أسلم أحد رعايقهم^(٢) . وفي سرية ابن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم قام المسلمون بدعوتهم إلى الإسلام^(٣) . كذلك فإن جمعاً من هوازن قدموا المدينة مسلمين إثر سرية قادها إلى مضاربهم شجاع بن وهب ﷺ^(٤) . وكنا قد أشرنا من قبل إلى بعض الزعماء الذين أسلموا عقب إرسال الرسول ﷺ كتبه إليهم ، وأيضاً إلى المناطق التي انتشر فيها الإسلام من جراء هذه الدعوة السلمية . وفوق هذا فإن في الحديث عن انتشار الإسلام في فترة صلح الحديبية لا يمكننا إغفال ما لتصاعد قوة الدولة الإسلامية ، وفرض وجودها — من أثر في ذلك ، ولعل ما سقناه قبلاً من كلام لعمر بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما في قصة إسلامهما ما يكشف شيئاً من هذه الحقيقة . وعلى هذا فإن الأرقام التي ذكرها ابن هشام عن عدد المسلمين في الصلح ، ثم عددهم في فتح مكة باعتبارها حجة مصدقة على كلام الزهري لا يمكننا أن نعول عليها لأمرين ؛ الأول : أننا عرفنا أن الأمن الذي ذكر لم يكن إلا عاملاً واحداً من عوامل

(١) مسلم : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٨٧٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

(٣) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤١ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٥٤ .

انتشار الإسلام ، ولم يكن له أثر واضح إلا في استقطاب جماعات من فريق واحد من الداخلين في الإسلام ، وهم قريش وحلفاؤها . الثاني : أن الاحتجاج بقلعة النافرين مع الرسول ﷺ في غزوة الحديبية ، وكثرهم في فتح مكة — غير دقيق ، ذاك أن المسلمين كانوا في الصلح أكثر من ذلك ، فالرسول ﷺ في مواجهة الأحزاب جند ثلاثة آلاف من أصحابه^(١) في المدينة نفسها دون المسلمين خارجها ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن هناك فرقاً بين التوجه إلى مكة في غزوة الحديبية وفي غزوة فتح مكة ، ففي الأولى اعترى الناس خوف عند الخروج إليها ، وقد جاء التصريح بذلك في القرآن — كما مر الإشارة إليه في إحدى النقاط السالفة — حتى ظن الأعراب ومن على شاكلتهم أن لا ينقلب الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهلهم أبداً . بينما في الثانية (غزوة فتح مكة) كان النبي ﷺ حينما زحف إليها يتمتع بالقوة ، ويكاد يكون المسلمون يومها القوة الكبرى في الجزيرة العربية ، ولذا كان من الطبيعي ألا يتخلف عنهم من يستطيع المشاركة ، ثم إن قسماً عريضاً من الجيش الإسلامي كان في فتح مكة من القبائل العربية ، حيث اشتهرت مشاركة أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم^(٢) ، وقد روي أن المهاجرين والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد^(٣) لا يمثلون سوى ٤٧٠٠ رجل من عدد جيش المسلمين البالغ عدده عشرة آلاف^(٤) .

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٦٠ .

(٤) الوافدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٨٠٠ .

نخلص من هذا كله أن المشركين من قريش وحلفائهم الذين قُيأت لهم جميعاً الفرصة في ظل الصلح اللقاء بالمسلمين ، والحديث معهم ، وسماعهم القرآن ، ومن ثم دخولهم في الإسلام لم يكونوا سوى نسبة غير كثيرة بالمقارنة بمن دخل فيه من غيرهم الذين اندفعوا إلى الإسلام أو دخلوا فيه تحت مؤثرات قد لا تكون هي التي جذبت القرشيين إليه .

وعلى أي حال فإن مما يعزز ما سقناه آنفاً من أقوال حول انتشار الإسلام وقتذاك ما روي أن خالد بن الوليد رضي الله عنه عند إسلامه في أوائل السنة الثامنة الهجرية^(١) قال لعمر بن العاص رضي الله عنه لما التقاه في الطريق إلى المدينة ، وسأله عن وجهته ، فأجابه أنه يريد النبي ﷺ — قال: " دخل الناس في الإسلام ، ولم يبقَ أحد به طمع "^(٢). ومما يدل على ذيوعه بين العرب في فترة الصلح ما حدث به عمرو بن سلمة الجرمي^(٣) رضي الله عنه من أنه أمَّ قومه في الصلاة بعد فتح مكة ، وعمره ست أو سبع سنين ، وذلك لأنه حفظ كثيراً من القرآن من أفواه الركبان الذين كانوا يعمرون على ماء لهم قبل الفتح بقليل^(٤) . ولمزيد من البيان حول فشو الإسلام في زمن الصلح لعلنا نسرد أمثلة أخرى لمن أسلموا غير عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما اللذين أشار إليهما الواقدي هنا ، وتطرقتنا

(١) ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ ، ٤٥٣ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤٤ .

(٣) عمرو بن سلمة بن نفع الجرمي ، وفد على النبي ﷺ مع أبيه ، وقيل إن وفاته كانت سنة ٨٥ هـ (ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط. الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ج ٣ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤)

(٤) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٦٤ - ١٥٦٥ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، الشامي : سبل الهدى ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ .

لقصة إسلامهما مع صاحبهما عثمان بن طلحة رضي الله عنه في عصر فائت — لعنا نسرد أمثلة للمسلمين من قريش ومن غيرها في تلك المدة ، فمن الذين أسلموا من قريش في أيام الصلح أبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنه ^(١) ، وجبير بن مطعم رضي الله عنه ^(٢) ، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ^(٣) ، كما قيل إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان ممن أسلم في تلك المدة ، فقد روي عنه أنه قال: " لما كان عام الحديبية ، وصدوا رسول الله ﷺ عن البيت ، وكتبوا بينهم القضية ، وقع الإسلام في قلبي ، فذكرت لأمي ، فقالت : إياك أن تخالف أباك ، فأخفيت إسلامي . فوالله لقد رحل رسول الله من الحديبية وإني مصدق به ، ودخل مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم ، وعلم أبو سفيان بإسلامي ، فقال لي يوماً : لكن أخوك خير منك وهو على ديني ، فقلت : لم آل نفسي خيراً ، وأظهرت إسلامي يوم الفتح ، فرحب بي النبي ﷺ ، وكتبت له " ^(٤) . ومن أسلموا زمن الصلح من غير قريش نذكر سبعة الأسلمية رضي الله عنها التي كانت " أول امرأة

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ص ٦٢ .

(٢) ابن حجر : الإصابة ، ج ١ ، ص ٤٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص ١٢٢ . ولما ذكر ابن حجر رواية إسلام معاوية رضي الله عنه بعد الحديبية ، وكنمه إسلامه حتى أظهره عام الفتح ، قال " وهذا يعارضه ما ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في العمرة في أشهر الحج : فعلناها وهذا يومئذ كافر " يعني معاوية . ثم عقب بقوله " ويحتمل إن ثبت الأول [يعني قول معاوية] أن يكون سعد أطلق ذلك بحسب ما استصحب من حاله ، ولم يطلع على أنه كان أسلم ، لإخفائه لإسلامه " . (ابن حجر : الإصابة ، ج ٦ ، ص ١٥١) .

أسلمت بعد صلح الحديبية ، أثر العقد ، وطى الكتاب ، ولم تحف" (١).
وعوف بن الأضبط رضي الله عنه (٢)، وأبو جمعة الكنانى رضي الله عنه (٣)، وأبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه الذي قدم المدينة ، فأسلم والرسول ﷺ كان يتجهز لغزوة خيبر (٤) ، وأبو هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه الذي قدم المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى خيبر في مطلع السنة السابعة من الهجرة (٥) ، وروي أنه قال: " قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتاً من دوس " (٦).

وهناك وفود من القبائل قدمت إلى النبي ﷺ أيام الصلح وأعلنت إسلامها ، منها وفد جذام ، حيث قدم رفاعة بن زيد بن وهب الجذامي على رسول الله ﷺ " في هدنة الحديبية في جماعة من قومه فأسلموا " (٧).

ثامناً : أتاحت هدنة الحديبية للمسلمين الاتصال بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من مكة ، ونشر الإسلام بين أهلها ، إذ ظلوا قبل ذلك — أثناء الحرب المتصلة بين قريش والمسلمين — بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن متناول الدولة

(١) الفاكهي : أخبار مكة ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، ط. الثانية ، دار خضر ، بيروت ،

١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٥ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ٧ ، ص ٦٩٢ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ٣ ، ص ١٢٤٨ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ٤ ، ص ٧٤٥ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ، ج ٧ ، ص ٦٦ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ؛ الشامي : سبل الهدى ، ج ٦ ، ص ٣٣٤ .

(٥) ابن قيم : زاد المعاد ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

(٦) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٣٦ . انظر : الشامي : سبل الهدى ، ج ٦ ، ص ٣٣٧ .

(٧) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ٢ ، ص ٥٠٠ . وانظر أنور ماجد عشقي : المفاوضات بين الحديبية

وروح العصر ، ط. الأولى ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ٢٦٤ - ٢٦٧ .

الإسلامية وسلطانها في المدينة^(١) . وبوصول الإسلام إلى هذه المنطقة أمست مكة في السنة الثامنة من الهجرة مطوقة بالمسلمين من جميع جهاتها ، فضلاً عما بداخلها ، ولعل ما أفضى به خالد بن الوليد رضي الله عنه من أقوال لبعض القرشيين حين إسلامه في أوائل السنة الثامنة يصور بدقة حال مكة وقتذاك ، فلقد وصم القرشيين مرة بأنهم أكلة رأس ليدل على قتلهم ، فقال لأحدهم: " أما ترى ما نحن فيه ، إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم " ^(٢) ، وشبههم مرة أنهم: " بمنزلة ثعلب في جحر ، لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج " ^(٣) ليدل على إحاطة الإسلام بهم من كل جانب ، وقال عنهم مرة ثالثة: بأنهم لو بقوا في بلدهم مكة — بعد أن دخل الناس في الإسلام — لأخذ برقابهم كما تؤخذ الضبع في مغارقتها ^(٤) . ومآل مكة إلى هذه الحالة ذو أهمية بالغة لدولة الإسلام من الناحية العسكرية ، إذ معناه أن مصير القرشيين ودينهم الوثني قد تقرر بالفعل نهائياً لصالح المسلمين طال الزمن أو قصر على حد سواء ^(٥) .

تاسعاً : الظاهر أن استمرار تدفق المهاجرين المسلمين من مكة إلى المدينة قبيل الحديبية ، سواء المهاجر منهم المنفلت من قريش قسراً بعد حجر وتضييق ، أو

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله ، ط. الثالثة ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٥٧ ؛ عماد الدين خليل : دراسة في السيرة ، ط. الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٣٢ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ .

(٤) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٤٤ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ .

(٥) خطاب : الرسول القائد ، ص ٣١٧ .

المهاجر العادي الذي لم يتعرض عند هجرته لأي عائق أو مانع — يبدو أن ذلك كان يقلق المشركين كثيراً في مكة ، ويقض مضاجع زعمائهم ، فحرصوا في صلحهم مع الرسول ﷺ على إدراج شرط يحجر على هؤلاء المهاجرين ، ويحد من تواردهم على المدينة ، وهو الخاص برد المسلم إلى قريش ، وعدم رد المرتد عن الإسلام إلى الرسول ﷺ وصيغته كما سبق " على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه".

وقد رأى المشركون أنهم كسبوا بهذا الشرط بخلاف المسلمين الذين غضبوا منه ، فكان رد النبي ﷺ : " إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً " ^(١). فالسماح للمرتد عن الإسلام بترك المدينة ، والعودة إلى مكة فيه تصفية لجماعة المسلمين ، ونخل لصفوفهم من غير المخلصين للدين ، وهذا عين المصلحة التي عناها النبي ﷺ بقوله : " إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله " . أما فيما يتعلق بالمسلمين المردودين إلى قريش فقد كرر الرسول ﷺ أكثر من مرة أن الله سيجعل لهم فرجاً ومخرجاً ، قالها عند موافقته لقريش على الشرط حين ناقشه المسلمون ^(٢) ، وقالها أيضاً لأبي جندل بن سهيل ابن عمرو الذي رده الرسول ﷺ أثناء كتابة الصلح ^(٣) ، كما قالها مرتين لأبي بصير عتبة بن أسيد بن جارية ^(٤) الذي هيا الله تعالى على يديه فيما بعد إبطال هذا الشرط . وبمرور الأيام انقلب شرط قريش هذا في غير مصلحتها ، بل صار وبالاً عليها ، فسعت بنفسها راغمة للتحلل منه ، والبراءة من تبعاته ، ذاك أن

(١) مسلم : الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٤١١ .

(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

أبا بصير رضي الله عنه فر من مكة إلى المدينة ، فلما رده النبي ﷺ — طبقاً للاتفاق — مع مبعوثين من قريش كانت قد أرسلتهما في عقبه ، قتل أحدهما وأفلت منه الآخر ، ثم كر إلى المدينة راجعاً ، وكلم الرسول ﷺ قائلاً: " قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم نجاني الله منهم " ، فقال النبي ﷺ: " ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد " ، فلما سمع أبو بصير ذلك فهم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى سيف البحر^(١) على طريق قريش التجاري من ناحية العيص^(٢) ، فسمع به أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي أعيد إلى المشركين وقت الصلح ، كما سمع بخبره غيره من المسلمين المستضعفين بمكة ، فلحق الجميع به^(٣) ، حتى بلغ عددهم ما بين الستين إلى السبعين^(٤) ، وقيل: إنه تجمع معهم أناس مسلمون من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف أخرى حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل^(٥) ، فضيقوا على قريش " لا يظفرون بأحد إلا قتلوه ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها " ^(٦) ، الأمر الذي دفع قريشاً أن تسأل الرسول ﷺ بالأرحام أن يؤويهم في المدينة ويخلصها من مشاكساتهم ، ففعل^(٧) .

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٩ .

(٢) العيص بين المدينة والبحر ، وإد الجهينة من أودية ينبع ، وهي اليوم قرية عامرة ، تبعد شمالاً عنها حوالي ١٥٠ كم (شراب : المعالم الأثرية ، ص ٢٠٤) .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٩ .

(٤) ابن هشام : السيرة ، جـ ٣ ، ص ٤٤٩ .

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام (المغازي) ، ص ٤٠١ ؛ الزرقاني : شرح المواهب ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ .

(٦) ابن هشام : السيرة ، جـ ٣ ، ص ٤٤٩ .

(٧) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٩ .

وخلاصة مما مضى أن الذي اعتبرته قريش كسباً كبيراً لها عند توقيعها الصلح من حيث رد المسلمين إليها ، وعدم رد المرتدين عن الإسلام إلى المدينة — عاد في صالح المسلمين ، وقد تجلّى ذلك فيما يلي :

١- أن الراغبين بالعودة إلى المشركين في مكة سيكونون حتماً قلة ، لأنه لا يمكن لأحد تخالط بشاشة الإيمان قلبه ، ويؤمن بالله إيماناً صادقاً ، ثم يتردد إلى الكفر . وإذا تخلص المسلمون من هذه القلة غير المخلصة كان في ذلك خير عميم لهم ولقاعدتهم المدينة ، وهذا ما نبه إليه الرسول ﷺ في كلام له سبق .

٢- صحيح أن المستضعفين من المسلمين في مكة لقوا عنتاً شديداً من قبل المشركين بسبب تطبيق الشرط الذي فرضته قريش على المسلمين ، لكن ذلك العنت لم يدم طويلاً ، فما لبث أن جعل الله لكثير منهم فرجاً ومخرجاً ، مثلما جاء مراراً على لسان رسول الله ﷺ ، إذ فروا من مكة وعسكروا في منطقة العيص مع أبي بصير ؓ . بيد أن المهم هنا أن هؤلاء المستضعفين شكلوا أزمة ذات أبعاد خطيرة في حلقة الصراع بين المسلمين والمشركين ، فأبو بصير وجماعته وفروا للمسلمين قوة ضاربة ضد قريش في طريق تجارتها إلى الشام ، فهي تقتل أي مشرك قرشي يمر عليها ، وتستولي على أي قافلة تجارية قرشية ، ذاهبة للشام أو آية ؛ فضلاً عن كونها تعسكر بشكل دائم على هذا الطريق ، ولم يكن هذا كله ليتأتى للرسول ﷺ وأصحابه حتى ولو لم تجر معاهدة الصلح مع قريش ، فظروف المسلمين في المدينة لم تكن تسمح للرسول ﷺ إلا أن يخرج بين آونة

وأخرى بنفسه أو يرسل بعض أصحابه في سرايا صغيرة لتحقيق بعض تلك الأهداف الحيوية التي حققها أبو بصير وإخوانه في فترة زمنية قياسية . ورغم هذه المصالح جميعها التي جناها المسلمون من أعمال هذه الجماعة فإنه لا يحق لأحد بأي حال من الأحوال أن يحمل الرسول ﷺ مسؤولية عملياتها ، إذ أنه ﷺ أثبت لقريش تمسكه ببنود المعاهدة عند رده لأبي بصير عليه السلام حتى شهدوا له بالوفاء بالعهد^(١) ، بل الحق أن تنسب هذه الجماعة إلى القرشيين أنفسهم ، لأن أفرادها كانوا من أبنائهم الذين تسللوا مؤخراً من بلدهم مكة إلى العيص لا إلى المدينة ، فالمشكلة ظهرت أمام الناس مشكلة بين هذه الجماعة وبين أهلهم القرشيين ، والمسلمون بمنأى عن ذلك .

وهكذا صار الشرط الذي تبجحت قريش بفرضه على النبي ﷺ في صالح المسلمين ، فآزمة هؤلاء المستضعفين في مكة الناشئة من إصرار قريش على رد من أسلم إلى مكة انقلب — كما هو واضح — إلى إرهاب لها ، وضرب موجه لتجارها ، واغتيال لرجالها ، دع عنك ما يتخلف عن كل هذا من إحن وثرات تبدد الشمل ، وتفرق الجمع ، وبهذا نفهم السر الذي جعل قريشاً لم تكتفِ مثلاً بالتغاضي عما قد يحصل من خرق لذلك الشرط ، بل ألحت على الرسول ﷺ أن يتخلى عنه ، ومن فرط إلحاحها عليه سؤاها له بالأرحام أن يؤوي جماعة أبي بصير ﷺ إلى المدينة .

عاشراً : قدر الله سبحانه وتعالى أن يكون المبرر الأول الذي حرك المسلمين للزحف نحو مكة ، وفتحها الفتح الأعظم ، وتطهيرها من الوثنية في رمضان من

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ .

السنة الثامنة للهجرة^(١) — متعلقاً بصلح الحديبية ، فلقد كان من شروط ذلك الصلح — كما أوردناه سالفاً — " أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . " . وقد توثبت في حينها خزاعة ودخلوا في عهد النبي ﷺ ، بينما دخلت بنو بكر في عهد قريش^(٢) . وبعد مرور سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً تورط نفر من القرشيين بدافع من ضغنهم على الرسول ﷺ — تورطوا بالمشاركة في الاعتداء على حلفائه من خزاعة حينما بيّتهم أعداؤهم بنو بكر على ماء اسمه الوثير ، حيث عمد هؤلاء النفر إلى إغانة حلفائهم بني بكر سراً بالكراع^(٣) والسلاح والريق ، كما قاتلوا معهم مستخفين بالليل^(٤) . وقد ذكر أن صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو كانوا على رأس المشاركين في هذه الحادثة^(٥) ، وقيل: إن عدد القتلى من خزاعة وصل إلى عشرين رجلاً^(٦) . ولا شك أن هذا العمل من هؤلاء القرشيين — وإن حاولوا إخفاءه بقتالهم مع بني بكر بالليل — يعد خرقاً صريحاً لأحد شروط الحديبية ، فهم قدموا لهم أدوات الحرب لقتال حلفاء الرسول ﷺ ، بل لم يكتفوا بذلك ، وإنما قاتلوا معهم . وقد أوضح النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه أن سبب توجهه لغزو مكة رغم الصلح مع أهلها هو ما فعلوه بحلفائه ، فلقد روى موسى بن عقبة^(٧)

(١) البخاري : الصحيح ، ج ٤ ، ص ١٥٥٨ ؛ مسلم : الصحيح ، ج ٢ ، ص ٧٨٤ ، ٧٨٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

(٣) الكراع يقصد به الخيل ، وقد يراد غيرها من الحيوان (ابن حجر : فتح الباري ، ج ٢ ، ص

٥٠٢ ، ج ٦ ، ص ٦٠١) .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٥ ، ص ٦ ، ٩ ؛ ابن كثير :

السيرة ، ج ٣ ، ص ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ .

(٥) البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٥ ، ص ١٠ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٥٣٢ .

(٦) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٨٤ .

(٧) البيهقي : دلائل النبوة ، ج ٥ ، ص ١٢ ؛ ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٥٣٥ .

أن أبا بكر رضي الله عنه لما أخبره الرسول ﷺ بنيته لغزو قريش قال: " يا رسول الله ، أليس بينك وبينهم مدة ؟ " ، فرد عليه ﷺ بقوله: " ألم يبلغك ما صنعوا بيني كعب ؟ " ، وبنو كعب أحد بطون خزاعة ، وهم الذين يقطنون مر الظهران والأراك^(١) ، وقد كان زعيمهم عمرو بن سالم قد قدم إلى النبي ﷺ وأخبره بما جرى^(٢) .

وصفوة القول أن صلح الحديبية كان من أعظم الفتوح على المسلمين ، فما إن عزم النبي ﷺ على توقيعه مع قريش حتى أخذت آثاره الإيجابية ، ونتائجه المباركة تتوالى عليهم واحدة بعد أخرى ، وما أصدق تلك الكلمات التي رويت على لسان أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شأن هذا الصلح — وقد مرت سابقاً — حين قال: " ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد " .

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

الخاتمة :

وبعد أن عرفنا عبر الصفحات المواضي كيف كان صلح الحديبية هو الفتح المين الذي جاء ذكره في الكتاب الحكيم ، نعود لنذكر — في نقاط مركزة — بأهم ما توصلنا إليه من نتائج :

* تبين أن هذا الصلح كان معروفاً عن النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بوصفه فتحاً ، بل بأعظم الفتوح حتى إن بعض الصحابة كان يرى لفظ الفتح إذا ذكر بإطلاق فإنما يعني صلح الحديبية ، وليس فتح مكة .

* علمنا أن الرسول ﷺ ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، الذي يعز عليه ما يغتتهم لم يترك أصحابه في حيرتهم التي ولدتها بعض شروط الصلح مع قريش ، إذ بشرهم بتزول سورة الفتح عليه ، وكذلك شرح لهم دلالات هذا الصلح ، من حيث إن قريشاً لم تقدم عليه إلا بعد أن دافعت المسلمين عن مكة بالقوة ، وعانيت منهم ومن أحوالهم ما لا يسرها ، ثم إنها من عند نفسها طلبت إبرامه معهم ، وقد أقبلت على إتمامه رغبة في الأمان من المسلمين باعتبارهم قوة يحسب لها ألف حساب .

* وضح أن المسلمين عاشوا في ظلال هذا الصلح أعزة مهابين ، ففضوا على اليهود ، واستأصلوا خطرهم من جزيرة العرب ، وأوقفوا الأعراب عند حدهم وزاروا مكة معتمرين ، وقاموا بدعوة البعيدين عنهم من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل إلى الإسلام بالمبعوثين والرسائل .

* اتضح أن انقطاع قعقة السلاح ، وصليل السيوف ، ونار الحرب ، وحلول السلام بين المسلمين وقريش كان أجدى أثراً في دعوة القرشيين إلى الإسلام ، ومن ثم انقيادهم إليه . فالتعايش السلمي بين الطرفين الذي لم يأخذ إلا مدة قليلة بالمقارنة مع المدة الطويلة التي استغرقتها حالة الحرب والعداء أثر عن إقبال — لا نظير له — على الإسلام من قبل المشركين القرشيين ، إذ أتاح

لهم جو السلام والأمن الاستماع بتؤدة إلى القرآن ، والتمعن بفصاحة تراكيبه ، وإعجاز آياته ، والتفكر في عجائبه التي لا تنقضي ، وقصصه التي لا تمل ، كما نظروا بعين العقل إلى الإسلام ، واطلعوا على محاسنه ، فكانت النتيجة أن قهفوا عليه مقرين به ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

* وعند كلامنا عن إحدى النتائج الكبرى للصلح وهي انتشار الإسلام في بحر أيامه علمنا أن كثرة الداخلين في الإسلام إبان الصلح لا تعود فقط إلى الأمن الذي عاشه المسلمون وقريش ، وما تمخض عنه من لقاءات ومدارس ومناقشات حول الدين الإسلامي — كما يذهب إلى ذلك الزهري ومن وافقه من الكتاب الغابرين والمتأخرين — ، لأن تلك الحالة فقط تنطبق على الذين أسلموا من قريش وأحلافها ، وهم قسم غير كثير من الداخلين في الإسلام وقتذاك . أما غيرهم — وهم كثر — ممن أسلموا في تلك المدة سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها ، من العرب والعجم ، فقد كان إقبالهم على الإسلام تحت ظروف أخرى ، وبمؤثرات مختلفة .

* في الحديث عن آثار صلح الحديبية ونتائجه ثبت اتساع دائرة الدعوة الإسلامية في ظلاله ، وقد استوعبت فيه الأساليب والوسائل الدعوية المتاحة في ذلك الزمان ، ورأينا أن المسلمين في فترة الصلح مع قريش استخدموا في نشر دينهم الجهاد بالسيف والسنان مع من لم يصالحوهم ، والدعوة بالحجة والبرهان مع الجميع .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس المصادر والمراجع :

أولاً المصادر :

القرآن الكريم

- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .
— أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) .
— النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط. أنصار السنة المحمدية ، لاهور ، باكستان .
أحمد : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) .
— مسند الإمام أحمد ، نشر سميح طه المجذوب ، ط. الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) .
— الصحيح ، تحقيق مصطفى البغا ، ط. الخامسة ، دار اليمامة ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
ابن بلبان : الأمير علاء الدين علي بن بلبان (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) .
— صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط. الثانية ، دار الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) .
— دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، تحقيق عبد المعطي قلنجي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

— السنن ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) .

— الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. الأولى ، دار الجليل ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

— فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

الحلي : علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م) .

— السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) .

— تاريخ الإسلام (المغازي) ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

— سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عوار معروف ومحيي هلال السرحان ، ط. الثامنة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

الزبيدي : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م) .

— تاج العروس ، تحقيق علي شيري ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

الزرقاني : محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م) .

— شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) .

— الطبقات الكبرى ، ط. دار صادر ، بيروت .

السهيلي : أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن أبي محمد (ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) .

— الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط. مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

الشامي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الصالحي (ت ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م) .

— سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) .

— تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. دار سويدان ، بيروت .
ابن طولون : شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م) .

— إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط. دار الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) .
— الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. دار نهضة مصر ، القاهرة .

عياض : أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) .
— إكمال المعلم بفوائد مسلم ، تحقيق يحيى إسماعيل ، ط. الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

الفاكهي : أبو عبد الله محمد بن إسحاق (ت أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) .

— أخبار مكة ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، ط. الثانية ، دار خضر ، بيروت ،
١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م) .

— الجامع لأحكام القرآن ، ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الثالثة ، دار الكتاب
العربي ، بيروت ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

القسطلاني : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) .

— المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، تحقيق صالح أحمد الشامي ، ط. الأولى ، المكتب
الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ /
١٣٥٠ م) .

— زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ،
ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .
— تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الأولى ، دار الكتاب
العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

— السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦
هـ / ١٩٧٦ م .

الكلاعي : أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) .

— الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال
الدين عز الدين علي ، ط. الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
المباركفوري : أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت ١٣٥٣ هـ /
١٩٣٤ م) .

- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابورى (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) .
- الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربى ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م
- المقرئى : تقى الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) .
- إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمد عبد الحميد النميسى ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- النيسابورى : أبو الحسن علي بن أحمد الواحدى (ت ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م) .
- أسباب النزول ، تحقيق عصام الحميدان ، ط. الأولى ، مؤسسة الريان ، لبنان ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م) .
- السيرة النبوية ، تحقيق همام سعيد ومحمد أبو صعليك ، ط. الأولى ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .
- الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) .
- المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، ط. عالم الكتب ، بيروت .
- ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) .
- معجم البلدان ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- اليقوبى : أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) .
- تاريخ يعقوبى ، ط. دار صادر ، بيروت .

ثانياً المراجع :

- أحمد : مهدي رزق الله (دكتور) .
- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ط. الأولى ، مركز الملك فيصل ، الرياض ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- أرنولد : سير توماس و .
- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي ، ط. الثالثة ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- البوطي : محمد سعيد رمضان (دكتور) .
- فقه السيرة ، ط. دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- الجبني : محمد الأمين (دكتور) .
- السيرة النبوية من فتح الباري ، ط. الأولى ، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- الحكمي : حافظ أحمد (دكتور) .
- مرويّات غزوة الحديبية ، ط. الأولى ، دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- الخرعان : عبد الله بن عبد الرحمن (دكتور) .
- السيرة النبوية ، ط. الأولى ، دار إشبيلية ، الرياض ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- خطاب : محمود شيت .
- سفراء النبي ﷺ ، ط. الأولى ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- الرسول القائد ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- خليل : عماد الدين (دكتور) .

- دراسة في السيرة ، ط. الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- درادكة : صالح موسى (دكتور) .
- العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، ط. الأولى ، الأهلية للنشر ، عمان ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- شراب : محمد محمد .
- المعالم الأثرية في السنة والسيرة ، ط. دار القلم ، دمشق ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- الشريف : أحمد إبراهيم (دكتور) .
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .
- أبو شهبه : محمد (دكتور) .
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، ط. الثانية ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- العاني : زياد محمود (دكتور) .
- أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ، ط. الأولى ، دار عمار ، عمان ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .
- عشقي : أنور ماجد (دكتور) .
- المفاوضات بين الحديبية وروح العصر ، ط. الأولى ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- العمر : ناصر بن سليمان (دكتور) .
- حقيقة الانتصار ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٢ هـ .
- العمري : أكرم ضياء (دكتور) .
- السيرة النبوية الصحيحة ، ط. الخامسة ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

الغزالي : محمد .

— فقه السيرة ، ط. الثالثة ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

الغضبان : منير محمد (دكتور) .

— المنهج التربوي للسيرة النبوية " التربية الجهادية " ، ط. الثانية ، مكتبة المنار ،

الأردن ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

غلو ش : أحمد أحمد (دكتور) .

— الدعوة الإسلامية ، ط. الثانية ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ /

١٩٨٧ م .

فيض الله : محمد فوزي (دكتور) .

— صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ،

١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

قطب : سيد .

— في ظلال القرآن ، ط. التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

الميداني : عبد الرحمن حبنكة .

— الحضارة الإسلامية ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

الناصر : محمد حامد . وخولة درويش .

— الحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام ، ط. الأولى ، دار عالم الكتب ،

الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

وات : مونتجمري .

— محمد في المدينة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا

— بيروت .